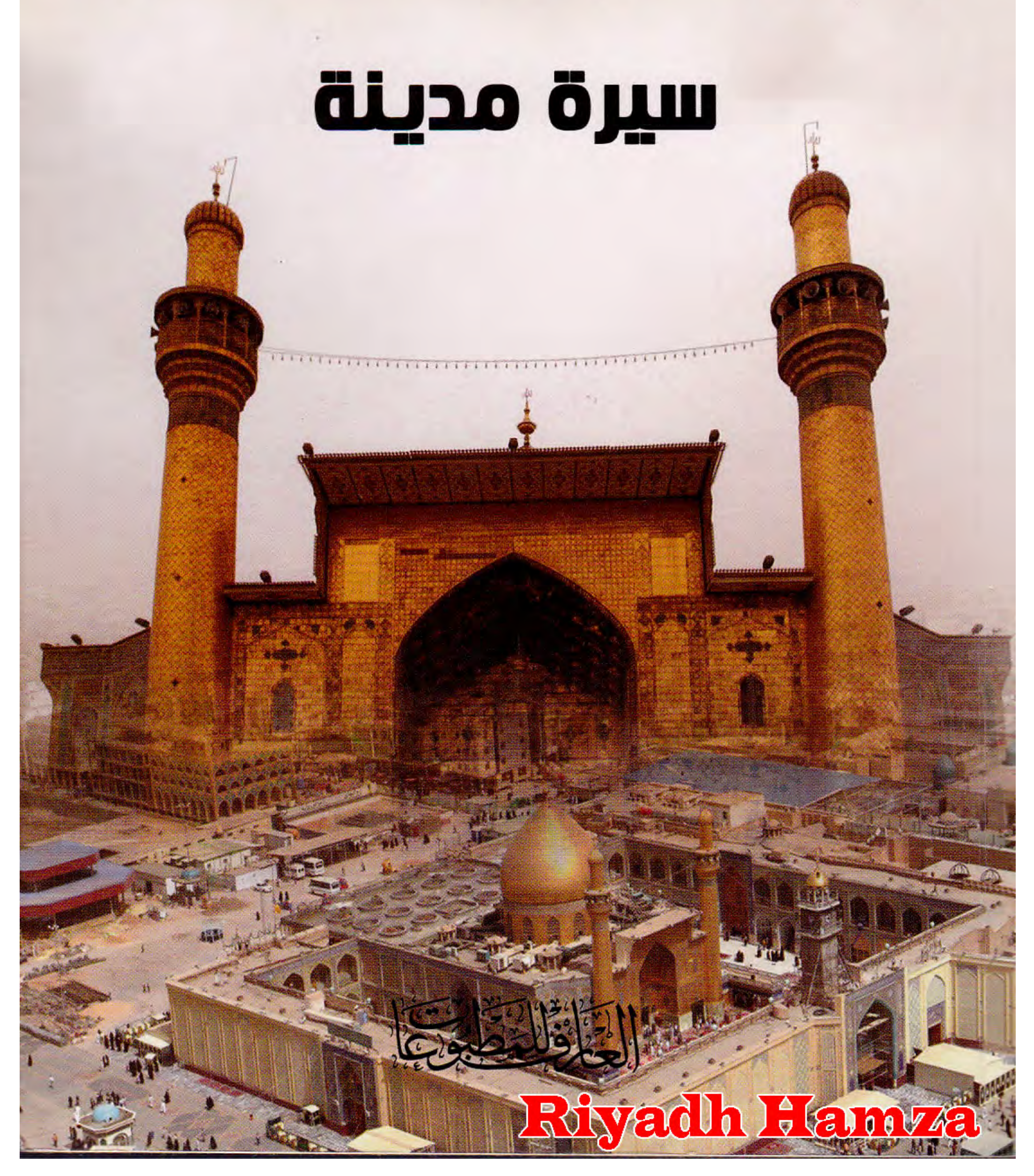
عبد الهادي احمد الفرطوسي

اوراق من ذاكرة بانقيا

سيرة مدينة



أوراق
من ذاكرة بانقيا

أوراق
من ذاكرة بانقيا

سيرة مدينة

عبد الهادي أحمد الفرطوسي



أوراق من ذاكرة بانقيا

عبد الهادي أحمد الفرطوسي

الطبعة الأولى 2012

القياس 14.5 x 21.5

الإخراج أحمد جابر

عدد الصفحات: 160

ISBN 978-9953-[illegible]

نشر وتوزيع

شركة المعارف للأعمال ش.م.م.



بيروت - لبنان
00961 14520[illegible]

العراق - النجف الأشرف
00964 780132[illegible]

هام جداً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

وهو يتسكع في أزقتها يتساءل:

كيف بنيت هذه المدينة؟ وكيف كانت خطة البلدية قبل أن يهبط إليها الشيخ أبو جعفر الطوسي؟ وما اسم المهندس الذي شيدها؟ وهل تأسست على وفق نظام سابق؟ كان مرسوما على الأقل في ذهن مؤسسها الأول؟

فإذا كان الجواب بالسلب فلماذا يتوجب عليه أن يكتب روايته على وفق نظام سابق؟

هكذا قرر أن يتمرد على قواعد جيرار جينيت وجميع المعنيين ببناء الرواية ويكتب على غير مثال.

وحين شرع بكتابة الصفحات الأولى منها أحس بأنه يبحث عن شيء مهم، وبعد تأمل قصير قفزت إلى ذهنه عبارات للكاتب البحريني نادر كاظم، إذ يقول: "فثمة جماعات لا تتمثّل وجودها التاريخي الخاص إلا من خلال سردها الخاص أو تحبيكها الخاص لتاريخها الثقافي، وهذا التحبيك هو -في المقابل- ما يدعم هويتها، وهو ما يكوّن ''الهوية السردية''"، إذ ذاك تداعى إلى ذهنه كلام طويل لبول ريكور وأدور سعيد وكيث وايتلام عن الهوية السردية، وإذاك أيضا أدرك أنه كان

يسعى لأن يجمع عناصر هويته [illegible] [illegible] [illegible] الاتساق المطلوب.

وهو يكتب هذا العمل لم يكن [illegible] [illegible] [illegible] تلك الهوية التي يسعى إلى بلورتها، لقد كان يكتب [illegible] [illegible] الكتابة دون وعي قبلي، هكذا وجد نفسه يغوص في عمق التاريخ ويستنجد بأقدم الأساطير بحثا عن هويته ولكن أي هوية يريدها لذاته؟؟؟

قد تفرض رغبته الذاتية هوية معينة لكن الواقع يفرض جانبا آخر ربما لم يكن في حسابه، هكذا يسأل نفسه من أين يبدأ؟؟

أمن اللحظة التي حل فيها الشيخ أبو جعفر الطوسي على هذه القرية الرابضة على ضفاف الصحراء؟ أم يتوغل في العمق ليصل إلى الساعة التي استقبلت فيها جسد السميدع العظيم؟

كلا فالأمر أبعد من ذلك، فحين هاجر الشيخ أبو جعفر وجد مدينة مأهولة، ووجد فيها دراسة علمية حوزوية، ووجد قوما ينتسبون إلى المدينة كان من بينهم أحمد بن عبد اللّه الغروي (نسبة إلى الغري)، وشرف الدين بن علي النجفي.

نعم، المدينة أبعد من هجرة الشيخ إليها، ذلك هو التاريخ الحقيقي لولادة الثوية. وعليه أن يبدأ من تلك النقطة في بحثه والتنقيب.

لم يطل به الانتظار... فسرعان ما وجد النقيض، المغيرة بن شعبة. وقد حملت جثمانه بعد عشر سنوات من وفاة السميدع إلى تلك الثوية. ليشكل القطب الآخر الذي تتأسس عليه المدينة على وفق قانون وحدة الأضداد وصراعها، هذا

يسعى لأن يجمع عناصر هويته المتشظية ويوحدها ويمنحها الاتساق المطلوب.

وهو يكتب هذا العمل لم يكن واعيا إلى جوهر تلك الهوية التي يسعى إلى بلورتها، لقد كان يكتب ويواصل الكتابة دون وعي قبلي، هكذا وجد نفسه يغوص في أعماق التاريخ ويستنجد بأقدم الأساطير بحثا عن هويته. ولكن أي هوية يريدها لذاته؟؟؟

قد تفرض رغبته الذاتية هوية معينة لكن الواقع يفرض جانبا آخر ربما لم يكن في حسابه، هكذا يسأل نفسه من أين يبدأ؟؟

أمن اللحظة التي حل فيها الشيخ أبو جعفر الطوسي على هذه القرية الرابضة على ضفاف الصحراء؟ أم يتوغل في العمق ليصل إلى الساعة التي استقبلت فيها جسد السميدع العظيم؟

كلا فالأمر أبعد من ذلك، فحين هاجر الشيخ أبو جعفر وجد مدينة مأهولة، ووجد فيها دراسة علمية حوزوية، ووجد قوما ينتسبون إلى المدينة كان من بينهم أحمد بن عبد اللّه الغروي (نسبة إلى الغري)، وشرف الدين بن علي النجفي.

فعمر المدينة أبعد من هجرة الشيخ إليها، ذلك هو التاريخ الحقيقي لولادة الثوية. وعليه أن يبدأ من تلك النقطة في البحث والتنقيب.

لم يطل به المسار... فسرعان ما وجد النقيض، المغيرة بن شعبة، وقد حملت جثمانه بعد عشر سنوات من وفاة السميدع إلى تلك الثوية، ليشكل القطب الآخر الذي تتأسس عليه المدينة على وفق قانون وحدة الأضداد وصراعها، هذا

القانون الذي يشتغل على كل المستويات: الجغرافية والتاريخ والسياسة والفيزياء والقائمة تطول،على هذه الرقعة شيدت الحانات العامرة مكانا للهو والمجون: حانة جابر وحانة شهلا وحانة دومة وحانة عون،وإلى جوارها كان دير حنا، ودير حنضلة بن عبد المسيح ودير هند ودير اللج ودير العذارى وأديرة كثيرة أخرى خصصت لعبادة الله.

ذلك هو المغيرة بن شعبة، الذي دفن جثمانه على بعد مائة متر عن مرقد السميدع، قد تصدق الرواية وقد تكذب، لكن المتفق عليه أن المغيرة مدفون في هذه الرقعة من الأرض.

أهم ما حفظه التاريخ لنا من سيرة ذلك الصحابي الجليل، قصته مع أم جميل، كانت أرملة فاتنة الجمال، وكانت ترتاد دور الأشراف، ويوم كان المغيرة واليا على البصرة، شهده جاره أبو بكرة وهو يزني بأم جميل، حين نهض أبو بكرة ليغلق الكوة التي فتحتها الريح شهد المغيرة يجثو على صدر أم جميل وقد بان الوشم على فخذها، فنادى أصحابه أن ينظروا إلى أميرهم وهو على تلك الحال.

لم تكن أم جميل بأكثر جمالا من سمية أم زياد، لكن زيادا هذا آثر أن يقول الحقيقة مخالفا أصحابه الثلاثة، الذين شهدوا أمام الخليفة بأنهم رأوا بأم أعينهم ميل المغيرة بن شعبة يدخل في مكحلة أم جميل، هكذا وصف زياد المشهد الذي رآه أمامه بالبصرة دون زيادة او نقصان، قال: رأيت أستا، وفخذين مرفوعين إلى الأعلى كأذني فأر، وأضاف أنه قد رأى الوشم الذي كان يطرز فخذي أم جميل فيمتد بصورة

الأفعى من فخذيها صاعدا إلى ردفها منعقدا على وركها بصورة رأسي أفعيين يلتقيان، لكنه لم يقل أنه رأى ميل المغيرة يدخل مكحلة أم جميل، بذلك أنقذ الوالي من إقامة الحد عليه، وأوقع على أصحابه حدا آخر، وقد ظن الناس أن زيادا قد أدلى بتلك الشهادة تعاطفا مع المغيرة، وفي الحقيقة أن ذلك كان نتيجة التعاطف مع أم جميل، لأنها كانت تشبه أمه في الكثير من سجاياها، ترى؟؟ .... هل حفظ التاريخ هذا الفضل لزياد؟؟ فحين آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان أمر بعقد محكمة أخرى، كانت المرأة سمية لا أم جميل، وما زال زياد يتذكر تلك الشهادة السوداء، يوم روى صاحب الحان: قال:

- وفي الصباح سألت أبا سفيان:

- كيف وجدت سمية؟

- حسنة لولا عفن في أبطيها ورخاوة في أستيها.

عندها ثارت حفيظة زياد، فقال:

- أسكت، قبحك الله، جئنا بك شاهدا لا شاتما.

هكذا ثبت التاريخ الرسمي للزنوة التي وقعت بين أبي سفيان وسمية، وبتلك الشهادة صار زياد أخا لأمير المؤمنين وأميرا على البصرة والكوفة.

وبتلك الشهادة أيضا صار لزياد الحق في أن يشرّع عقوبات جديدة، ويطبقها على الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري بأن يأمر بسقيه مادة مسهلة ويطاف به في الأسواق، فكان يسلح على نفسه أثناء الطواف، وبتلك الشهادة أيضا صار

لزياد الحق في اتخاذ الإجراءات الصارمة من أجل تأديب الترابيين والسبئيين، بصلب قادتهم على جذوع النخيل، وقطع أعناق بعضهم، وبتلك الشهادة أيضا صار لزياد الحق في أن يأمر شرطته بانتزاع عمد السوق ومهاجمة أهل الكوفة، من أجل إلقاء القبض على حجر بن عدي، فصار حجر يقطع الليل بالنهار متسللا بين الأزقة والدروب الضيقة، بعد أن تكاثرت الشرطة على قومه وأنصاره، وبتلك الشهادة أيضا صار لزياد الحق في أن يتوعد محمدا بن الأشعث بقطع نخله وهدم دوره وتقطيعه إربا إربا، إن لم يحضر حجرا بن عدي أمامه، وبتلك الشهادة أيضا صار لزياد الحق في أن يكتب إلى أمير المؤمنين قائلا: "إني ضممت العراق بشمالي ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز"، فضم إليه العروض وهي اليمامة وما يليها، قبل أن تخرج طاعونة على إصبعه فيموت ويدفن بالثوية إلى جوار المغيرة صاحب أم أريقط.

ويعود يسأل نفسه: من أين يبدأ؟ أمن اللحظة التي حل فيها الشيخ أبو جعفر الطوسي على هذه القرية الرابضة على ضفاف الصحراء؟ أم يتوغل في العمق ليصل إلى الساعة التي استقبلت فيها جثمان السميدع العظيم؟ ذلك هو التاريخ الحقيقي لولادة الثوية... كلا ربما كان الأمر أبعد من ذلك بكثير... يتذكر هذا الأمر كلما دخل الحضرة المقدسة ووقف في إيوانها، وتلا زيارة أمين الله، إذ ذاك يختلط الواقع بالأسطورة، فيسرح ذهنه بعيدا لأسطرة الواقع، او لتلوين أساطيره بخطوط واقعية، ويتساءل: ترى إلى أي جنس ينتمي جدنا آدم؟؟؟ إلى إنسان نياندرتال أم إلى إنسان كرومانون،

ويتذكر: قال الإمام جعفر الصادق: "قبل آدم ألف ألف آدم"... ربما كانت تلك هي اللحظة الأولى لولادة الثوية، يوم جاء جدنا الأول يجوب القفار ويقطع الجبال والوديان، ليحط الرحال على تلك البقعة ويجعل منها مثواه الأخير، هذا ما لم يخبرنا به الشيخ المجلسي في بحار أنواره، بل قال لنا إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نوح وهو في السفينة أن يطوف في البيت أسبوعا فطاف في البيت أسبوعا ثم نزل في الماء حتى ركبتيه فاستخرج تابوتا فيه عظام آدم فحمل التابوت في جوف السفينة ثم طاف في البيت ما شاء الله له أن يطوف ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجدها، ففيها قال الله للأرض ابلعي ماءك فبلعت ماءها من مسجد الكوفة، كما بدأ الماء من مسجدها، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح في السفينة فأخذ نوح التابوت فدفنه في الغري.

لكنه لم يخبرنا عن مصير جدتنا حواء، ولماذا لم يشر إلى رقادها في ذلك الوادي المقدس إلى جوار رفيق عمرها آدم؟؟؟ ربما أستكثر الشيخ عليها وهي مجرد امرأة أن تشارك نبي الله هذا المكان العظيم، وربما ترك الأمر مسكوتا عنه ليفتح باب التأويل على مصراعيه...

هكذا رقد آدم وحيدا في هذه البقعة لآلاف السنين... حتى حل عليه ضيف جديد، كان ذلك الضيف من جنس إنسان كرومانون وربما كان يحمل إلى حد ما ملامح كريستوف كولومبس وهو يقود سفينته العملاقة التي بناها ليجعل فيها من كل زوجين اثنين، ظل الضيف يطوف بسفينته العملاقة لسنين طويلة حول البقعة المقدسة، حتى غاض

الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وهبط الضيف الجديد، وقبل أن يتجه إلى مثواه الأخير، تأمل المكان حوله، ثم رسم حدودا دقيقة لذلك المكان ليصير في آخر الزمان مسجد الكوفة، ويمتلئ بالمصلين، وليأتيه من المدينة المنورة مسلم بن عقيل، فيصلي الظهر فيه وخلفه الألوف، وحين يجن الليل لم يجد من يؤويه، غير امرأة من سواد الكوفة، ولم تتمكن من إيوائه إلى الصبح، فبعد سويعات أقبل ابنها ومعه جمع من الجند يطلبون مسلما بن عقيل طمعا بجائزة الأمير.

أما الضيف الجديد فقد توجه نحو الغرب فراسخ عدة ليرقد رقدته الأخيرة إلى جوار جده آدم، لم يفكر برفيقة دربه، لأنها كانت من الهالكين، لذلك ربما حذف المجلسي اسم حواء من قائمة الثاوين في هذه البقعة؛ لئلا تثير غيرة الضيف الجديد، وقبل ان يصل إلى مثواه الأخير اعترض طريقه واحد من أحفاده، يطلب منه أن يمنحه الخلود، فكان جوابه أن الموت مكتوب ومقدر على كل البشر ولا يمكن لأي إنسان أن ينجو منه، ولئلا يعود الحفيد خائبا أعطاه عشبة، اقتطعها من ذلك الوادي، كانت نابتة بين الذكوات الثلاث، واخبره أنها ستجدد شبابه كل عام، لكن حية خبيثة انسلت من أعماق ذلك الوادي، وظلت تتربص بالحفيد حتى أخذته سنة من النوم، فسرقت العشبة وأكلتها، فكانت هي وأبناؤها تجدد جلدها كل عام.

لم يرو الشيخ المجلسي ذلك الخبر في بحار أنواره، فهل كان جاهلا بأمره أم تعمد التجاهل؟؟؟ ليحمي نباتات الوادي

الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وهبط الضيف الجديد، وقبل أن يتجه إلى مثواه الأخير، تأمل المكان حوله، ثم رسم حدودا دقيقة لذلك المكان ليصير في آخر الزمان مسجد الكوفة، ويمتلئ بالمصلين، وليأتيه من المدينة المنورة مسلم بن عقيل، فيصلي الظهر فيه وخلفه الألوف، وحين يجن الليل لم يجد من يؤويه، غير امرأة من سواد الكوفة، ولم تتمكن من إيوائه إلى الصبح، فبعد سويعات أقبل ابنها ومعه جمع من الجند يطلبون مسلما بن عقيل طمعا بجائزة الأمير.

أما الضيف الجديد فقد توجه نحو الغرب فراسخ عدة ليرقد رقدته الأخيرة إلى جوار جده آدم، لم يفكر برفيقة دربه، لأنها كانت من الهالكين، لذلك ربما حذف المجلسي اسم حواء من قائمة الثاوين في هذه البقعة؛ لئلا تثير غيرة الضيف الجديد، وقبل ان يصل إلى مثواه الأخير اعترض طريقه واحد من أحفاده، يطلب منه أن يمنحه الخلود، فكان جوابه أن الموت مكتوب ومقدر على كل البشر ولا يمكن لأي إنسان أن ينجو منه، ولئلا يعود الحفيد خائبا أعطاه عشبة، اقتطعها من ذلك الوادي، كانت نابتة بين الذكوات الثلاث، واخبره أنها ستجدد شبابه كل عام، لكن حية خبيثة انسلت من أعماق ذلك الوادي، وظلت تتربص بالحفيد حتى أخذته سنة من النوم، فسرقت العشبة وأكلتها، فكانت هي وأبناؤها تجدد جلدها كل عام.

لم يرو الشيخ المجلسي ذلك الخبر في بحار أنواره، فهل كان جاهلا بأمره أم تعمد التجاهل؟؟؟ ليحمي نباتات الوادي

من التخريب، ولئلا يقلق الأحفاد راحة الضيف وهو يرقد رقدته الأخيرة إلى جوار جده الأول، لكن الناس روت أن الشيخ بهاء الدين العاملي، المهندس الذي بنى المرقد المقدس، قد صنع دواء خاصا يبطل مفعول سم الأفعى، وسقى به الأفعى التي سرقت العشبة المقدسة، فبطل سمها وسم ذريتها.

انتهت حكاية الضيف الجديد باضطجاعه إلى جوار جده، بينما واصل الأحفاد حياتهم مشرقين ومغربين، فملئوا الأرض رجالا ونساء وبعد آلاف السنين على وصول ذلك الضيف ورقاده إلى جوار جده وصل ضيفان آخران إلى الوادي المقدس، كذلك لم يخبرنا المجلسي، بتفصيلات وصولهما، هل جاءا سوية أم كل على انفراد؟؟؟ وبقي الأمر مسكوتا عنه، المهم أنهما وصلا إلى الوادي، وأقاما على مقربة من الذكوات الثلاث، وصار حسين قسام سادنهما، ولم يخبرنا الشيخ أيضا أتم تعيين الشاعر حسين قسام سادنا لهما برغبتهما؟ أم فرض نفسه عليهما قسرا؟؟؟

وظلت عجلة الزمن تدور، وأبناء الجد الأول في تكاثر حتى جاء السميدع واتخذ مرقده هناك، ليستريح في قبر محفور ولحد مشقوق وساجة منقورة مكتوب عليها: "هذا ما ادخره له جده نوح النبي للعبد الصالح الطاهر المطهر".

وقد قصد بنوه أن يخفوا قبره خوفا من أعدائه، فأوهموا الناس في موضع قبره فشدوا تابوتا على جمل، وأخرجوه من الكوفة ليوهموا الناس أنهم يحملونه إلى المدينة، كما أخرجوا جنازة مغطاة على بغل، ليوهموا الناس أنهم يدفنونها في

الحيرة، وحفروا قبورا كثيرة في مواضع مختلفة في المسجد وقصر الإمارة وفي الكناسة والثوية وفي دار لآل جعدة بن هبيرة المخزومي ومنها في دار بحذاء باب الوراقين، ليضيع أثره على الناس ولا يعرف مكان مدفنه الحقيقي، غير بنيه والخاصة من أصحابه.

وبعد عشر سنوات حل قرينه الضد المغيرة بن شعبة في المكان ذاته، وبعد عشر أخرى مرت على المكان قافلة ترفل بالنصر، وتتيه غرورا، كانت تحمل رؤوسا معلقة على أطراف الرماح، وسبايا من النساء والأطفال، كانت القافلة سائرة في طريقها إلى الكوفة لا يعكر صفوها شيء لولا أن الناقة التي كانت تحمل السبية الأولى قد توقفت عن السير.. أطالت الوقوف، ثم استدارت بشكل مفاجئ إلى الغرب وأخذت تطلق صيحات حزينة بذلك الاتجاه، لم ينتبه أحد إلى سلوك تلك الناقة، غير أن السبية الأولى أدركت، أنها كانت على بعد فرسخ واحد من مرقد أبيها، وأن تلك الناقة كانت تبعث برسالة إلى السميدع الكبير تخبره عما حلّ بأبنائه وأهل بيته وأصحابه من نكبات، لقد حرص الراوي العليم على تحديد الموضع الذي أطلقت فيه الناقة صيحاتها، فجعل له نياشين لا تقبل الزوال، وليشير على الآتين من بعده أن يشيدوا عليه مسجدا عامرا ويسموه مسجد الحنانة.

بعد ان أكملت الناقة رسالتها واصلت سيرها نحو الكوفة وسط قافلة السبايا، وما هي إلا ساعات حتى دخلت المدينة، فوجدتها ترفل بالفرح والبهجة، كانت النساء تحمل الدفوف والدرابك والرجال يضربون على الصنوج، واصلت الناقة

سيرها وسط مظاهر الفرح والابتهاج، متجهة إلى قصر الإمارة، وعند مدخل السوق المؤدية إلى القصر كان الناس يتزاحمون على رؤية السبايا والسعي إلى الاقتراب منهم، والتحدث إليهم، لكن الأمر لم يغب عن بال السبية الأولى، فسرعان ما أدركت أن تحت مظاهر الفرح الكبير مسارب من الدموع الساخنة تتدفق بغزارة، على وجنات آلاف النساء والرجال، مثلما سيحصل بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام، يوم يزمّ الناس شفاههم على شتائمهم البذيئة وهم يرددون:

«بالروح ... بالدم ... نفديك يا صدام»

الراوي الذي وصف لنا هذا المشهد بكل تفاصيله ودقائقه أخبرنا أنه عند مدخل السوق نفسه شهد بعد عدة سنوات الناس يتزاحمون على رؤية قائد الشرطة يلقي القبض على إبراهيم بن مالك الأشتر، وشهد إبراهيم يختطف رمحا ويغرزه في بطن قائد الشرطة فيجندله صريعا على الفور ويهتف: "يا لثارات الحسين"... عندها تعالت الأصوات وساد الهرج والمرج بالسوق، وانتشرت عدوى الهياج بين الجميع، فتعالت أصوات "يا لثارات الحسين"... وعند العصر، كان الرجال يطوفون في أزقة الكوفة وقد لبسوا الأكفان وركبوا ظهور خيولهم وهم يرددون يا لثارات الحسين، وعلى أطراف الكوفة كان النبط ينتظمون في مواكب كبيرة، ويلطمون على إلههم القتيل طوموزو، وكانت النبطيات يلطخن وجوههن بالطين وينتحبن بحرقة وهن يندبن كشتن أنّا ويروين مأساتها، وهي تتابع أخاها طوموزو الذي وقع في قبضة الشياطين فتحاوشوه

بالعصي والرماح والسكاكين من كل جانب، ثم اقتادوه إلى العالم الأسفل ليمثل أمام شيخال إلهة ذلك العالم المظلم.

لقد رصدت عين الكامرا مشهدا لنساء الثلمة والباب الزغيرة وتحت العلوة وبير عليوي وهن يتجمعن أمام مسجد الحنانة، ثم يلطخن وجوههن بالطين الحري وينثرن ما تبقى منه على رؤوسهن وعباءاتهن وينطلقن في مسيرة كبيرة مرددات:

«رحنا دفنا وجينا
راس حسين جا وينه»

حين أبصر الراوي ذلك المشهد، وسمع النساء يترنمن بتلك الأهزوجة، أعلن أنّ لها أصل موغل في القدم، فهي مطلع لقصيدة لأنهيدوأنا ابنة سرجون الأكدي، كانت تضعها على شفاه نساء أور، يترنمن بها كلما حل موسم اللطم على الإله القتيل دموزي، ربما ذهب البعض إلى المله فليحة يسألها عن صحة نسبة الأهزوجة إلى الشاعرة إنهيدو أنا، لم تكلف المله فليحة نفسها بالإجابة، لأنها كانت مشغولة بترنيمة جديدة تعطل البوح بها لأكثر من عشر سنوات، وقبل أن يقترب جمع السائلين إلى مجلسها كان صوت المله فليحة ينفجر مرددا:

«أربع طعش دولة حسين فرها وتهجول بيها
حطو براسه المشنقة ما هزته وهم بيها»

كانت المله فليحة تتلو قصيدتها وسط حشد من النسوة اللواتي طال انتظارهن لهذا اليوم الذي يقام فيه هذا المأتم

دون رقابة الشرطة السرية، ودون الخشية من العواقب غير المأمونة التي ستتلوه.

الرجال ذوو الأكفان بعد أن طافوا طرقات الكوفة، كانت أعدادهم في تزايد سريع حتى أذا ما اكتمل الهزيع الأول من الليل شكلوا جيشا لا يستهان بقوته، وتوجهوا نحو الشام لمواجهة جيش بني أمية، هكذا استجابت الجموع إلى نداءات الشيخ الطاعن في الحزن سليمان بن صرد.

أما النساء الكوفيات فقد ظل نحيبهن يتعالى، وهن يودعن ازواجهن الذاهبين إلى الموت، ثم يلجأن إلى التخفيف من عذاباتهن بمشاركة النبطيات مراسيم العزاء على الإله القتيل وهو يغادر هذه الدنيا إلى أرض اللاعودة مملكة أيرش - كيكال... إلى البيت المظلم مسكن أورشالا . . . البيت الذي لا يبرحه من تركه. . . إلى الطريق الذي لا رجعة منه . . . إلى البيت الذي حرم ساكنوه من النور. . . حيث التراب طعامهم والطين قوتهم. . . حيث لا يرون نورا ويقيمون في ظلمة. . . حيث يغطي الغبار الباب والمزلاج.

الرجال ذوو الأكفان بعد أن طافوا طرقات الكوفة توجهوا صاعدين نحو الشام، فأناخوا ليلتهم عند النخيلة، ودار شيخهم الطاعن في الحزن على القوم، وإذ لم تعجبه عدة أصحابه بعث حكيم بن منقذ الكندي في خيل وبعث الوليد بن غصين الكناني في خيل، وقال: اذهبا حتى تدخلا الكوفة، فناديا، يا لثارات الحسين، . . . فخرج إليه نحو من ألف رجل، ، ثم سار بهم في اليوم التالي نحو قبر الحسين، ووقف سليمان عند قبره، فكلما دعا له قوم وترحموا عليه قال لهم

المسيب بن نجبه: الحقوا بإخوانكم يرحمكم الله، وما زال كذلك حتى بقي نحو من ثلاثين من أصحابه، فأحاط سليمان بالقبر هو وأصحابه، فقال سليمان: الحمد لله الذي أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم إذ حرمتناها معه فلا تحرمناها فيه بعده.

ثم سار سليمان من موضع قبر الحسين وسار القوم معه على الخصاصة ثم على الأنبار ثم على الصدود ثم على القيارة، وحين اقترب من مواجهة جيش الشامين أمر القوم أن يتكوفوا حوله، وقدم نصائحه لهم، ثم قال:

> "إن انا قتلت فأمير الناس المسيب بن نجبة، فإن أصيب المسيب فأمير الناس عبد الله بن سعد بن نفيل فإن قتل عبد الله فأمير الناس عبد الله بن وال فإن قتل فالأمير عبد الله بن شداد".

ثم تلاقى الجيشان في عين الوردة، وبعث المسيب في أربع مائة فارس لملاقاة أول عساكر العدو، ثم التحم الجيشان فاقتتلا قتالا لم ير الشيب والمرد مثله قط لثلاثة أيام، حتى قتل الطاعن في الحزن سليمان بن صرد، فأخذ الراية المسيب بن نجبة، وقاتل نهاره كله حتى قتل، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وإذ هو يقاتل أقبل إليه البشير من جهة سعد بن حذيفة بن اليمان يخبره عن قرب وصوله في سبعين ومائة من أهل المدائن، ويخبرهم بمجيء المثنى بن مخربة العبدي في ثلاثمائة وخمسين من أهل البصرة، وظل عبد الله بن نفيل يقاتل حتى صرع على يد ابن

أخي ربيعة بن مخارق، وظلت الراية ليس لها أحد، حتى صارت إلى عبد الله بن وال، وعند المساء تولى القتال أدهم ابن محرز الباهلي في جيش من أهل الشام، فشد عليهم في خيله ورجاله حتى قتل عبد الله بن وال التيمي.



وماهي إلّا أيام قلائل حتى ظهر ابو إسحاق يدعو الناس إلى بيعته قائلا: تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحللين، والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا، وسلم من سالمنا، والوفاء ببيعتنا، ثم قال ما من ديننا ترك قتلة الحسين يمشون أحياء، بئس ناصر آل محمد وأنا إذا في الدنيا، أنا إذا الكذاب كما سموني، فإني إذ بالله أستعين عليهم، ثم قال فسموهم لي، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم، وبعد أن قويت شوكته كتب إلى محمد بن علي قائلا: " أما بعد، فإن الله بعثني نقمة على اعدائكم فهم بين أسير وقتيل وطريد وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته. . . فاكتب إلي برأيك أيها المهدي أتبع وأكون عليه"، ثم واصل القتل في قتلة الحسين حتى جاءه كتاب يفيد أن عبد الله بن الزبير حبس محمدا ابن الحنفية ونفرا من أنصاره حتى يبايعوه، وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا، وضرب لهم في ذلك أجلا، فلما قرئ الكتاب على أبي إسحاق نادى بالناس، وقال لهم: "هذا كتاب مهديكم وصريح أهل بيت نبيكم، وقد تركوا محظورا عليهم كما يحضر على الغنم ينتظرون القتل والتحريق

بالنار في آناء الليل وثارات النهار، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرا مؤزرا، وإن لم أسرب إليهم الخيل في أثر الخيل، كالسيل يتلوه السيل، حتى يحل بابن الكاهلية الويل".

ثم بعث بالخيل والرجال، حتى دخلوا المسجد الحرام، وهم ينادون " يا لثارات الحسين" حتى انتهوا إلى زمزم، وكان قد بقي من الأجل الذي أعطاه ابن الزبير يومان، فأعد الحطب لإحراق القوم، فدخل الرجال على ابن الحنفية، وقالوا له خلّ بيننا وبين عدو الله ابن الزبير، فقال لهم إني لا أستحل القتال في حرم الله، وخرج ومن معه إلى شعب علي، وقد اجتمع إليه أربعة آلاف رجل.

وقد ظل أبو إسحاق يتتبع قتلة الحسين ويتقصى آثارهم، وكان عبد الله بن دبّاس من الذين دلّوه على نفر من قتلة الحسين، منهم: عبد الله ابن أسيد بن النزال الجهني ومالك ابن النسير البدي وحمل بن مالك المحاربي، فبعث إليهم مالك بن عمر النهدي، فأخذهم وأدخلهم عليه، فقال لهم أبو إسحاق: أين الحسين بن علي؟ فقالوا بعثنا ونحن كارهون فامنن علينا واستبقنا. قال فهلّا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه، ثم قال أنت صاحب برنسه؟ فقيل له نعم هو، فأمر بقطع يديه ورجليه وظل على تلك الحال حتى مات، وقتل الآخران.

ومرة بعث عبد الله بن كامل فأخذ رجلا من بني ضبيعة ورجلا من عنزة ثم أخذ ثلاثة رجال من دار في الحمراء، وأدخل الجميع عليه، وكانوا قد أصابوا من الورس الذي كان مع الحسين، فقال لهم: يا قتلة الصالحين، قد جاءكم الورس

بيوم نحس، ثم أمر بإخراجهم إلى السوق وضرب أعناقهم.

كما بعث عبد الله بن كامل إلى حكيم بن طفيل الطائي السمبسي، وهو واحد من الذين أصابوا العباس بن علي ورمى الحسين بسهم، فاستغاث أهله بعدي بن حاتم، فلحقه في الطريق وكلم عبد الله بن كامل فيه فقال ما إلي من أمره شيء، إنما ذلك إلى الأمير المختار، فمضى عدي نحو المختار، فقال الناس لعبد الله بن كامل، إننا نخاف أن يشفع الأمير لعدي بن حاتم في هذا الخبيث، وله من الذنب ما قد علمت، فدعنا نقتله، فاستجاب لهم عبد الله، وعند دار العنزيين نصبوه غرضا وهو مكتوف، وقالوا له سلبت حسينا ثيابه والله لنسلبن ثيابك وأنت حي تنظر، ثم قالوا له رميت حسينا واتخذته غرضا، وأيم الله لنرمينك كما رميته بالنبال، ثم رموه رشقا واحدا فوقعت به منهم نبال كثيرة، فخر ميتا.

ومن الذين أُخذوا ثأرا للحسين خولي بن يزيد الأصبحي حامل رأس الحسين، جاءه معاذ بن هانئ الكندي، حتى أحاط بداره، فاختبأ خولي في المخرج، وسألوا امرأته عنه، فقالت لا أدري أين هو وأشارت بيدها إلى المخرج الذي أختبأ به، فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة، فأخرجوه، وحين وصل خبره إلى أبي إسحاق أمر بقتله إلى جانب أهله ثم دعا بنار فحرّقه بها حتى صار رمادا.

لكن عمرة بنت النعمان بن بشير، حين أمرها مصعب بن الزبير أن تتبرأ من زوجها أبي إسحاق المختار بن عبيد الثقفي، بعد أن قطع كفه وسمّرها بمسمار حديد إلى جنب المسجد، فعلت الضد مما فعلته زوج خولي بن يزيد

الأصبحي، فأبت عليه ذلك، حتى جاء أمر عبد الله بن الزبير بأن تخرج وتقتل فأخرجها مصعب وقتلها بين الحيرة والكوفة، وقد رثاها عمر بن ابي ربيعة بالقول:

إن من أعجب العجائب عندي

قتل بيضاء حرة عطبول

قتلت هكذا على غير جرم

إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا

وعلى المحصنات جر الذيول

هكذا عادت إلى الضعفاء دماء جديدة جرت في عروقهم منذ ان تسلم أبو إسحاق زمام الأمور، وصار لهم شأن كبير في الكوفة، وصار يحسب لهم حسابهم.

أما السادة والأشراف وعلية القوم حين ضاقوا ذرعا بالنبط والعبدان والموالي، لم يجدوا من يشكوه ظليمتهم غير مصعب بن الزبير، ليجهز لهم جيشا بقيادة المهلب بن أبي صفرة وعمر بن عبيد الله بن معمر وليتجه به نحو الكوفة ليواجه جيش أحمر بن شميط بحمام أعين، ولما استحرّ القتال مالت الخيل على جيش بن شميط، فانهزموا واخذوا الصحراء، ودعا مصعب بن الزبير فرسان أهل الكوفة الذين طردهم المختار، وقال لهم دونكم ثأركم، فكانوا لا يدركون منهزما إلا قتلوه فلم ينج من جيش ابن شميط الا قليل من أصحاب الخيل.

ثم تكاثرت الانتكاسات على أصحاب المختار، حتى حوصر في قصره، ثم كسر حصاره في سبعة عشر رجلا، وظل يقاتل حتى قتل في موضع الزياتين.

وبمقتله بلغ الفتى أوج غضبه، وتمنى لو يستطيع تغيير مجرى التاريخ، فيحقق المختار رسالته ويوصل الضعفاء، بفضل انسلاخه الطبقي، إلى قيادة الدولة، وتتحقق بهم النبوءة التي بشر بها الله تعالى في الآية الكريمة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: 5] ربما لأنه كان يحس بانتمائه الحميم إلى أولئك الناس، فكان يشعر بالزهو كلما حققوا انتصارا، ويخبو زهوه، ويحل به الانطفاء كلما حلت عليهم نكبة، وما أكثر النكبات التي تسلط عليهم.

يتذكر الفتى الذي كان يعتصر ذاكرة أجيال متلاحقة، ويدونها على الورق، يتذكر ما قرأه في "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" في أن جميع الأحداث والشخصيات في تاريخ العالم تظهر مرتين، لكنه اكتشف جيدا أنها لا تتكرر مرتين فقط، وإنما تتكرر مرات ومرات بأقنعة متباينة، وأزياء مختلفة، فما رواه من أحداث جرت في أرض السواد بين جيش المختار وجيش ابن الزبير قد تكرر حدوثها فيما بعد في زمان آخر ومكان آخر، يتذكر الفتى جيدا ما قرأه عن مشاعية باريس، حين أعلن قيامها في الثامن عشر من آذار عام 1871، يوم استولى العمال الفرنسيون على مدينة باريس وكانت الحرب على أشدها بين ألمانيا وفرنسا، عندها هيمن الذعر على الفئة الحاكمة في فرنسا فعجلت بتوقيع تعهد بدفع

غرامة قدرها خمسة مليارات فرنك ودفع نفقات الجيوش البروسية في فرنسا كما وافقت على قرار ضم أقليمي الألزاس واللورين إلى بروسيا، بينما تناسى (بسمارك أعداء الأمس وما أتخذه من إجراءات ضدهم فقرر رفع الحضر على تحديد الجيش الفرنسي من (40000) ألف إلى (100000) وثم إلى (130000) وأطلق سراح عدد كبير من الجنود لتقوية أعدائه، حتى أنه أطلق سراح قائد جيش نابليون الثالث المارشال (مكماهمون) ليتولى قيادة الجيش المضاد للثورة وعرضت ألمانيا جيشها إن لزم الأمر لتحطيم المقاومة العمالية في باريس وإعادة حكومة تيير الهاربة إلى فرساي إلى كراسيها، هكذا بدأت قوات حكومة (تيير) منذ 9 نيسان بقصف مستمر لباريس ومن 21 أيار بدأ الهجوم من قبل الأعداء، وتوجهت الكومونة بنداء إلى الشعب للدفاع عن الثورة وساهم الرجال والنساء والأطفال في الدفاع عن مشاعيتهم، ومع دخول الجيوش إلى المشاعية، انقطعت الاتصالات فيما بينهم، وتشتت المقاومة العمالية في باريس .هكذا أجتمع الجيش الغالب والجيش المغلوب من أجل الاشتراك في التنكيل الدموي بالعمال الثائرين على ساداتهم ليصل عدد الضحايا على يد القوات الحكومية إلى ثلاثين ألف قتيل وخمسين ألف حكم عليهم بالسجن والنفي، وفقدت باريس أكثر من مائة ألف من أبنائها الأبطال، وبلغ عدد الأشخاص المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك بالثورة كما جاء في تقرير الجنرال (أبير) (34722) شخصاً.

اجتمع الجيش الغالب والجيش المغلوب على مشاعية

باريس، مثلما اجتمع جيش ابن الزبير وفرسان أهل الكوفة الذين طردهم المختار، على سلطة العبيد والموالي والنبط، ليعيدوا الكوفة وأهلها إلى قبضة غلام ثقيف.



يحكى ان غلام ثقيف ولد وليس له دبر فثقب له دبر وأبى أن يقبل ثدي أمه فقيل أن الشيطان تشبه لهم في صورة الحارث بن كلدة، وكان قد تزوج الفارعة قبل أبي الحجاج فقال لهم ألعقوه دم جدي يومين وليوم الثالث ألعقوه دم تيس أسود، ثم دم ثعبان سالخ أسود، واطلوا وجهه واخبرهم أنه سيقبل الثدي في اليوم الرابع. فنفذوا ما أمرهم أن يفعلوا وقبل الثدي وعاش وكبر، حتى صار واليا على العراق وكان نحيل الساقين ضئيل البدن ناعم الصوت، وكان أعور أخفش لا يقدر على فتح عينيه في الشمس، على يديه أنشئ سجن الديماس في الكوفة، وهو سجن دون سقف ضم عشرة آلاف سجين بين رجل وامرأة عشية موته، ومما روي عنه أنه كان إذا أعدم أحدا استمنى على نفسه، سام الناس الويل والعذاب، قال احدهم: هربت من الحجاج،حتى مررت بقرية فرأيت كلبا نائما في ظل حب، فقلت في نفسي ليتني كنت كلبا لكنت مستريحا من خوف الحجاج، ثم عدت من ساعتي فوجدت الكلب مقتولا، فسألت عنه، فقيل لي: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب.

ومن وسائل تعذيبه الناس ما قيل عن فيروز بن حصين وقد تم أسره في أعقاب فشل انتفاضة ابن الأشعث، فقد أمر

الحجاج أن يعرى من ملابسه وأن يلف بقصب مشقوق ثم أجروا القصب فوق جسده وأخذوا يذرون الملح ويصبون الخل على جراحه، قبل أن يأمر بقطع رأسه.

وكان لما دخل الكوفة وألقى خطبته الشهيرة فيها، وكان قد قطع رأس مصعب بن الزبير ليرهب الناس فضحك أعرابي بملء شدقيه، فسأله الحجاج:

- ويلك ما يضحكك؟؟

- لا أخبرك حتى تعطيني الأمان.

- لك الأمان.

فردّ الأعرابي بالقول:

- دخلت الكوفة فوجدت رأس الحسين محمولا على رمح عمر بن سعد، ثم دخلتها فوجدت رأس بن سعد محمولا على رمح المختار الثقفي، ثم دخلتها فوجدت رأس المختار محمولا على رمح مصعب بن الزبير، وها أنا أدخلها لأجد رأس مصعب بن الزبير محمولا على رمحك، فعلى أي رمح سأجد رأسك في المرة القادمة؟؟

عندها اتقدت في ذاكرة الفتى صور قاتمة لتاريخ أسود وترنم بقول البردوني:

يرتقي الذابحون .. يهوون ذبحى

استوى الحكم، يا مدى، والقصابه



ودارت الأيام، ورحلت سلطة بني أمية وقامت سلطة بني العباس، لكن العبيد والموالي والنبط والزط وعامة الضعفاء من الناس لم يتغير من حياتهم شيء، بقيت على ما هي عليه، وبقي الفتى يواصل زيارة محلته المنقرضة، متفقدا ملامحها، مستذكرا طفولته وصباه فيها، ويواصل اعتصار ذاكرة التاريخ وتدوينها على الورق، حتى امتزجت ذاكرته الشخصية بذاكرة الأجيال المتلاحقة عبر القرون والآلاف من السنين، يتذكر الفتى بدقة وجه حسين الأهوازي وهو يتنقل في سواد الكوفة من قرية إلى قرية مستطلعا وجوه النبط والموالي باحثا عن قرية باتنورا، ليزرع بذوره الأولى فيها، حتى التقى بحمدان بن الأشعث وأودعه السر الإلهي، وقال له أن الأرض لمن يفلحها ومن أحيا أرضا ميتة فهي له، وظل حسين الأهوازي ناطورا في أحد بساتين أبي عبد الله بن عمر بن شهاب العدوي، يسف الخوص ويحفظ الثمر ويقوم في الحضيرة، ويدعو الناس إلى كسر الأغلال عن رقابهم، وانتزاع رقاب الأرض من غاصبيها، كانت عيناه تمتدّ إلى سبخاء البصرة فيرى أنكلاي والمهلبي وسليمان بن جامع والشعراني والهمداني محتبسين في يد فتح السعيدي، وإذ كتب إليه الموفق طالبا رؤوس هؤلاء، بادر إلى فتح بالوعة في الدار فقلع رأسها، وأحضرهم واحدا واحدا، فقطع رؤوسهم ورمى بأجسادهم إلى البالوعة، وأعاد غلقها، ثم بعث برؤوسهم إلى الموفق.

لكن الموفق عدل عن طلبه الأول، وأمر فتحا أن يصلب هؤلاء بحضرة الجسر، فبادر السعيدي إلى فتح البالوعة مرة

أخرى وإخراج الجثث منها، وقد انتفخت وتعفنت وتقشرت جلودها، ونفذ أمر الأمير فصلبها على جانبي الجسر.

وإذ آلم حسين الأهوازي منظر الرجال المصلوبين، اشتد عليه المرض فلم يكن له من مأوى غير دار صاحبه الأول حمدان بن الأشعث، فأقام فيها حتى برئ من مرضه.

وحين عرف الهيصم سره وأدرك ما يصبو إليه، حبسه في داره وأقفل عليه بالمفتاح وخبأ المفتاح تحت وسادته، لكن جارية سمعت بأمره فرقت له فلما نام الهيصم بعد ليلة شرب، سرقت الجارية المفتاح من تحت الوسادة وأخرجت حسين الأهوازي، وأعادت المفتاح إلى مكانه، هكذا غاب الأهوازي عن سواد الكوفة إلى غير رجعة وترك الأمر إلى حمدان بن الأشعث، يواصل الطريق الذي رسمه له.

أخذت الجموع تتوالى على حمدان قرمط حتى كبر حزبه واتسعت سطوته وكثر دعاته وصار يشكل خطرا كبيرا على السلطان.

وفي صباح باكر استيقظ الناس فوجدوا حمدان بن الأشعث وإلى جانبه صاحبه وكاتبه عبدان محزوزين من الرقبة، لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد وإنما اتسعت فصار حزبه في كل مكان، في اليمن والبحرين وهجر والشام وبادية السماوة.

وإذ كبر خطر القرامطة في سواد الكوفة، أمر السلطان بأن يجهز جيشا بقيادة غلام لأحمد بن محمد الطائي، فلما ظفر بجماعة منهم قدم قائدهم إلى المعتضد وكان يعرف بابن أبي الفوارس فأمر بأن يعلق من يده وتعلق على الأخرى جندلة،

وترك لنصف نهار ثم أمر فقلعت أضراسه ثم خلعت إحدى يديه بشدها إلى بكرة متحركة وعلق في الأخرى صخرة، وترك على تلك الحال من منتصف النهار إلى المغرب، بعد ذلك أمر بأن تقطع يداه ورجلاه في الصباح ويقطع رأسه في المساء، ويصلب في محلة الياسرية في الجانب الشرقي من بغداد وتعلق جثته إلى جانب جثث رفاقه من القرامطة.

وكان من دعاة حمدان قرمط زكرويه بن مهرويه، وقد بايعه جماعة من كلب وهم بنو العليص ومعهم جماعة من بني الأصبغ، وقد تصدى لهم مولى المعتضد سبك الديلمي فهزموا جيشه وقتلوه غربي الفرات، ثم تقدموا نحو دمشق وهزموا صاحبها طغج بن جف، حتى أعانه جيش المصريين على قتل يحيى بن زكرويه.

وقد أعد زكرويه جيشا كبيرا، استطاع به أن يهزم جيش السلطان، ويقتل قائده سبك غلام المكتفي، ثم أعد طغج بن جف، جيشا لمواجهة زكرويه، فوقعت المعركة وهزم جيش طغج وقتل قائده، هكذا صار في قبضة زكرويه بلدان كثيرة:

دمشق وحمص وحماة ومعرة النعمان وبعلبك، وسلمية، وتواصلت المعارك بين زكروية وجيوش الخلافة، وكان من بينها ما دار في شهر رمضان من عام أحدى وتسعين ومائتين، حيث داهم صاحب الشامة زكرويه بن مهرويه قرب حلب جيش السلطان في يوم قائظ، وكان أفراده قد خلعوا ثيابهم ونزلوا يتبردون في ماء الوادي، فكبسهم على تلك الحال وقتل منهم خلقا كثيرا، ونهب المعسكر، وقد استطاع قائدهم الإفلات إلى حلب في ألف رجل من أصل عشرة آلاف.

أما الخليفة فقد توجه إلى الرقة، وأقام فيها، وأخذ يسرح الجيوش إلى صاحب الشامة جيشا بعد جيش، حتى إذا صارت جيوشه على مشارف حماة، فالتحمت الحرب بين الجيشين، واشتدت حتى انكسر جيش القرامطة، وأسر من رجاله الكثير وتفرق الباقون في الشعاب والوديان، ولما أدرك صاحب الشامة نتيجة المعركة قرر التوجه نحو الكوفة، وفي الطريق نفد ما كان معهم من الزاد والعلف، فبعث أبو الشامة رجلا من أصحابه ليشتري لهم ما يحتاجون وإذ دخل الرجل المدينة أنكر الناس زيه، فلما سألوه عن أمره مجمج، ثمّ كشف لهم سر صاحبه، فألقوا القبض على أبي شامة وصحبه واقتادوهم إلى بغداد، وهناك نودي على الناس ليحضروا حفل الإعدام، فاستقبلهم أبو شامة بالقول يا قتلة الحسين، وبداؤا يقتادون الأسرى واحدا واحدا، وكان الرجل يؤخذ ويبطح ثم تقطع يده اليمنى، وتعرض على الناس ثم ترمى، ثم تقطع رجله اليسرى وتعرض على الناس ثم ترمى، ثم يسرى يديه فيمنى رجليه، ثم يقعد فيقطع رأسه ويرمى جسده إلى الأسفل...

وقدم الحسين ابن زكرويه وضرب مائة سوط، وقطعت يداه ورجلاه وكوي بالنار فغشي عليه، وأخذ خشب وأضرمت فيه نار، ووضعت في خواصره وبطنه، فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما، فلما خافوا أن يموت ضربوا عنقه، ورفع رأسه على خشبة فكبر الجلادون من فوق الدكة.

ثم ظهر في بادية الشام رجل من القرامطة يقال له نصر، وقد اجتمع حوله طوائف من الأصبغيين والعليصيين ومن سائر

بطون كلب، وتوجه بهم إلى مدينتي بصرى وأذرعات، ثم توجه نحو دمشق، فواجههم جيش بقيادة أحمد بن كيغلغ وصالح بن فضل فقتلوا صالحا، وفضوا عسكره، وقصدوا نحو طبرية، فتصدى لهم عامل السلطان على الأردن، فقتلوه ونهبوا المدينة، وسبوا النساء، وقتلوا طائفة من أهلها، والعهدة على الإمام الطبري، ثم انعطفوا نحو السماوة، وجيش السلطان في أثرهم، حتى كف عن ملاحقتهم، فاسروا إلى هيت، فنهب ربضها وقتل من قدر عليه من أهلها، وأحرق منازلها، ثم غادرها متوجها إلى مكان يقال له المائين، فحوصر من قبل جيوش السلطان، ولما أحس أتباعه بالخطر، ائتمروا عليه، وفتكوا به، ثم جاءت جيوش السلطان فاحتزت رأسه وأدخلته مدينة السلام، ثم أن القرامطة قد اقتتلت بعد مقتل نصر فتفرقت في البلدان.

ثم برز داعية آخر من أكرة أهل السواد، وهو من رستاق نهر تلحانا يقال له القاسم بن أحمد بن علي، وأخذ يحشد الناس خلفه ويغويهم، فبايعه في الكوفة أربعون ألف رجل وفي سوادها أربع مائة ألف، ووافى منهم ثماني مائة فارس باب الكوفة، وعليهم الدروع والجواشن، ومعهم جماعة من الرجالة على الرواحل، وقد ضربوا قبة على قائدهم القاسم بن احمد، وهم يهتفون هذا بن رسول الله، وينادون: يا لثارات الحسين، قاصدين الحسين بن زكرويه المصلوب بباب الجسر جسر مدينة السلام، ورحم الله الإمام الطبري، فواجههم أهل الكوفة واستطاعوا ردهم عن المدينة، فتوجهوا نحو القادسية.

ثم حشد جيوش السلطان عدتهم وتقدموا نحوا القرامطة

واستطاعوا أن يهزموهم أول الأمر، وفي منتصف النهار خرج كمين للقرامطة عليهم فأوقع فيهم السيف، وانهزم أصحاب السلطان أقبح هزيمة، ولم يفلت منهم إلا من كان في دابته، أو من أثخن بالجراح وطرح نفسه بين القتلى، وقد قتل من رجال السلطان في تلك المعركة ألف وخمسمائة رجل سوى الغلمان والحمالين.

وفي البحرين ظهر أبو سعيد الجنابي، قادما من الكوفة إلى هناك، لتقوم دولته، وتخوض حروبا طاحنة مع دولة بني العباس، ويصل سلطانه إلى البصرة، ويخوض الحرب معهم، ويستأسر منهم زهاء سبعمائة رجل، ويحتوي ما كان في معسكرهم، ثم يأمر بإحراقهم جميعا، (هذا ما رواه الإمام محمد بن جرير الطبري رضي الله عنه وغفر ذنوبه الكثيرة)، ثم انه بعد أن انصرف من تلك الوقعة، وعاد فلول الجيش المهزوم يريد البصرة بغير أرواد، خرج إليهم قوم من البصرة بالطعام والماء والكساء، فتصدى لهم جماعة من بني أسد، فسلبوهم رواحلهم وما عليها من الأطعمة والأشربة، فاضطربت البصرة اضطرابا شديدا، وهم أهلها بالانتقال عنها خوفا من هجوم القرامطة عليهم.

وبقيت الأمور على هذه الحال حتى قتل أبو سعيد الجنابي من قبل خادم له سنة أحدى وثلاثمائة فأغلقت الكوفة أبواب محالّها حدادا عليه، وخلفه ابنه أبو طاهر ليسير على سنته.



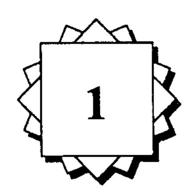
وحين ضعف سلطان البويهين سيطر الأتراك على مقاليد

الأمور، فازدادت القلاقل وكثرت الفتن الطائفية بين الشيعة والسنة في بغداد، وحين وصل طغرل بيك أول ملوك السلاجقة إلى السلطة اتسع نطاق تلك الفتن بأمره، فإنه في سنة 447هـ أمر بإحراق مكتبة سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي، الذي مدحه أبو العلاء المعري بقصيدة مشهورة، وقد بنى تلك المكتبة في محلة بين السورين في الكرخ سنة381هـ على مثال "بيت الحكمة" ويروى أن كتبها نافت على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الأسفار، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين.

الشيخ الطوسي "شيخ الطائفة" الذي تولى زعامة الشيعة بعد وفاة أستاذه الشريف المرتضى سنة 436هـ هرب من نيران هذه الفتنة الهوجاء، إذ أحرقوا كتبه ونهبوا داره وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام.

فلم يكن أمامه غير الهجرة إلى النجف ليتخذ منها مركزا ومنطلقا لحوزته العلمية، منذ ذلك الزمن صار الشيخ أبو جعفر المؤسس الأول لتلك المدينة.





قبل ان يبدأ عمله قرر زيارة الضريح المقدس.

وسأل نفسه من أي باب سيدخل.

أقرب الأبواب إلى قلبه هو باب العمارة، أو باب الفرج كما يسميه الشيوخ، الباب الذي كان يدخله برفقة جدته في طفولته الأولى، ربما لأن في ذلك الباب كان يجلس رجلان عجوزان يبيعان الحلوى، وكانت جدته تشتري له بعضا منها، لقد رحل العجوزان، وظل مكانهما فارغا لم يشغله احد، كما رحلت جدته، لكن باب العمارة ظل أقرب الأبواب إلى قلبه!!!!

وربما لأنه كان الباب الأقرب إلى باب المراد، وجدته كانت أيضا تتجه فور دخولها الصحن إلى باب المراد، تقبل عتبته، وتدعو الله أن يمن عليها وعلى عائلتها بالرزق والعافية.

حين وصل إلى باب العمارة منعه العاملون على الصحن من الدخول؛ لأن باب العمارة صار مخصصا لدخول النساء فقط، ذلك واحد من مكاسب مرحلة ما بعد الكولنيالية، الفصل بين الجنسين هو الميزة الأساسية لتلك المرحلة، وتساءل: هل دخلنا التاريخ من دبره؟؟؟

وهو يتجه إلى باب القبلة تساءل، أهذا هو مرقده حقا؟؟ أم أنه واحد من القبور الوهمية التي أصطنعها بنوه ليخفوا قبره

على الناس، لقد ظل موضع القبر مجهولا حتى كشفه صفوان الجمال، فقد روى حكاية رحلته مع جعفر بن محمد، قال:

"لما وافيت مع جعفر الصادق الكوفة، قال لي يا صفوان أنخ الراحلة، فهذا حرم جدي أمير المؤمنين، فأنختها، ثم نزل فاغتسل وغيّر ثوبه، وتحفى وقال لي افعل مثلما أفعله، ثم أخذ نحو الذكوات وقال لي قصر خطاك، وألق ذقنك إلى الأرض، ثم مشى ومشيت معه وعلينا السكينة والوقار، نسبح ونقدس ونهلل، إلى أن بلغنا الذكوات فوقف، ونظر يمنة ويسرة وخط بعكازه، وقال لي اطلب، فطلبت فإذا أثر القبر في الخط، ثم أرسل دموعه على خده... ثم قام وصلى عند الرأس ركعات، وقال يا صفوان من زار أمير المؤمنين بهذه الزيارة وصلى بهذه الصلاة، رجع إلى أهله مغفورا ذنبه، مشكورا سعيه، فقلت يا سيدي أتأذن أن أخبر أصحابنا من أهل الكوفة به، فقال نعم، وأعطاني دراهم وأصلحت القبر".

وقتها لم يكن القبر غير دكّة عادية ترتفع عن الأرض ارتفاعا قليلا، غير أن بناء جديدا طرأ عليه، يوم زار الرشيد الكوفة، وكان معه رحاله ياسر، فخرج لاصطياد الظباء في ظهر الكوفة فكان يرسل الصقور والكلاب في أثرها، وهي تتجه إلى أكمة فتسقط عليها، فترجع الكلاب وتسقط الصقور ناحية أخرى، وإذ تكرر المشهد ثلاثا أمر الرشيد حاشيته بأن يركضوا فيأتوه بمن يجدونه هناك، فأتوه بشيخ من بني أسد،

فأخبره عن سر تلك الأكمة، فدعا هارون بماء فتوضأ ثم صلى عند الأكمة وأخذ يبكي ويتمرغ على ترابها، ثم أمر ببناء قبة، فبنيت من طين أحمر وطرح على رأسها جرة خضراء.

لكن القبر ظل محاصرا من قبل الخلفاء العباسيين لسنين طويلة، لا يزار إلا بالسر، حتى خلافة المعتضد، فقد بادر محمّد بن زيد العلوي إلى بناء قبة وأحاطها بحائط وسور اشتمل على سبعين طاقا، وفي سنة 317 هـ ابتنى أبو الهيجاء عبد اللّه بن حمدان قبة عظيمة مرتفعة الأركان من كل جانب وجعل لها أبوابا وسترها بفاخر الستور، وفرشها بثمين الحصر الساماني، وجعل عليها حصاراً منيعاً، وفي سنة 367هـ توجه عضد الدولة البويهي إلى تعمير النجف وأقام عمارة عظيمة على القبر وأنفق عليه أموالا كثيرة، وستر حيطان المشهد بخشب الساج كما بنى سورا حول المدينة، وقد عين سادنا وخدمة للمرقد.

وفي سنة 400هـ أمر أبو محمّد بن سهلان، إن يبنى سورً على المشهد وقد تولى بناءه أبو اسحق الأرجاني، ونصبت عليه أبواب وثيقة.

وفي سنة 662 أمر حاكم بغداد بشق نهر من الفرات إلى النجف، وفي سنة 672 أمر علاء الدين الجويني صاحب كتاب (تاريخ فتوحات المغول) بحفر نهر من الفرات القديم إلى الكوفة، أدى إلى انتعاش القرى القائمة على ضفتي النهر، بعدها بأربع سنوات حفرت قناة جوفية من الكوفة إلى النجف.

لقد ضلت عمارة عضد الدولة البويهي عامرة لقرون عديدة، رغم تعاقب السلطات المختلفة عليها، فقد رحل

البويهيون وحل السلاجقة محلهم، ثم دخل المغول بغداد، والعمارة عامرة لا يعتريها الصدع، لولا أن المرقد قد تعرض إلى حريق بسبب مجهول لم يتعرض له المؤرخون ولم يتطرقوا إلى من كان وراءه، وقد جرى إصلاحه على يد الإيلخانيين على الأغلب، وقد بنوا معه مبنى خاصا بالسادة وأسموه دار السيادة، كما بنوا فيه خانقاه خاصة للصوفية، وقد احرق الضريح مرة أخرى على يد المولى المشعشعي عام 857هـ، وجعل من قبته مطبخا له لمدة ستة أشهر، فقد كان من الغلاة المتشددين في غلوهم، ومن الذين يؤمنون بإلوهية علي بن أبي طالب.

وفي عام 1032هـ قامت على يد الشاه عباس الصفوي الأول عمارة جديدة، حيث زار النجف مرتين، فأمر في الأولى أن يعاد كري نهر الطهمازية، وأوصله إلى النجف وعمل له بركة هناك للاستقاء منها، وفي الثانية أمر بتجديد القبة، وتوسيع الحرم.

وبعد عشر سنوات زارها الشاه صفي حفيد الشاه عباس الصفوي، وأمر بتجديد القبة وتوسعة الصحن، وقد اختار بهاء الدين العاملي مهندسا لها، فقام بعمله على أحسن وجه، وغير لون القبة من البياض إلى الزرقة، وأجرى إصلاحات فنية في أبوابه ومداخله، تميزت بهندستها الفريدة، بحيث يمكن معرفة أوقات الزوال صيفا وشتاء، من خلال تحكيم الشمس في الضريح، وبوساطة ما ينماز به الباب الشرقي للصحن الحيدري، وما تؤديه الأقواس التي تؤطر الواجهة الداخلية في تعيين وقت الزوال على امتداد السنة، وبعد أن فرغ من بناء

الضريح توجه إلى صنع عقار يبطل مفعول سم الأفعى، التي سرقت العشبة المقدسة، فبطل سمها وسم ذريتها. لكن الذين رووا الخبر لم يخبرونا عن الحدود الجغرافية التي يشتغل فيها مفعول التعويذة، أهو مقصور على حدود المدينة القديمة، أم اتسع مع اتساع المدينة؟؟؟

كما أمر الشاه صفي بحفر نهر من الحلة إلى الكوفة ثم أمر بحفر قناة من الكوفة إلى الخورنق وإيصالها إلى بحر النجف، وحفر هناك بحيرة صغيرة فيها، ثم أمر بحفر قناة من تحت السور يمر منها الماء ثم يحمل بوساطة الدواليب الرافعة إلى أزقة المدينة وإلى الصحن الشريف.

وفي سنة 1126 هـ تم تجديد صندوق الضريح، كما جرى تجديد بناء القبة بأمر حسن باشا والي البصرة.

وفي سنة 1155 هـ شرع الشاه نادر الإفشاري بالعمل على تذهيب قبة المرقد ومئذنتيه وإيوانه، وقد أهدى الكثير من التحف الثمينة إلى خزانة الضريح.، وكتب على طاق الباب الشرقي للضريح بالحروف الذهبية: "الحمد لله تعالى، قد تشرف بتذهيب هذه القبة المنورة والروضة المطهرة الخاقان الأعظم سلطان السلاطين الأفخم ابو المظفر المؤيد بتأييد الملك القاهر السلطان نادر أدام الله ملكه، وأفاض على العالمين بره وعدله وإحسانه".

وقد كان بره وإحسانه كبيرا على العالمين بالفعل، وقد تجلى ذلك في المذبحة المروعة التي أقامها في الهند بعد فتحه إياها، فقد أتخذ له مجلسا على منصة نصبت له على سطح مسجد روشن الدولة، وقد ظل ينظر بشغف على وقائع

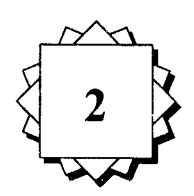
المذبحة لسبع ساعات من ثلاث جهات، وقد بلغت ضحايا المذبحة مائة ألف قتيل.

وفي سنة 1157 هـ زار نادر شاه مدينة النجف مرة أخرى، وقد دخل الضريح من زقاق صغير يسمى عكد الزنجيل، وذلك لأنه في ذلك الزقاق مر الشاه نادر، وقد وضع في رقبته سلسلة وأمر واحدا من عامة الناس أن يقوده إلى الضريح.

وقد عقد في النجف مؤتمرا للمذاهب الإسلامية، مثل الشيعة فيه السيد نصر الله الحائري، ومثل السنة الشيخ أحمد السويدي، وقد عقد المؤتمر المذكور في خيمة نادر شاه، وقد توصل إلى أن يكون المذهب الجعفري خامسا للمذاهب الأربعة.

لكن مشكلة انبثقت في صلاة الجمعة التي أعقبت المؤتمر، ألقى الشيخ نصر الله الحائري، خطبة تحدث فيها عن فضائل الصحابة وأثنى على أبي بكر وعمر وعثمان، لكنه كسر راء عمر، فامتعض الشيخ السويدي أي امتعاض، ووجد في عمل الحائري دسيسة خبيثة، غايته منها الانتقاص من الخليفة عمر بن الخطاب، إذ أن عمر ممنوع من الصرف أصلا للمعرفة والعدل، ففي كسره نفي لمعرفته وعدله.

مرّت مئات السنين على رحيل الحائري ورحيل السويدي ومعهما نادر قلي، وما يزال الفتى حائرا أيكسر راء عمر أم يفتحها، وهل يتوجب عليه من الوجهة الفقهية أن يقلد الشيخ الحائري في وجوب كسر راء عمر، ام أن تقليد الأعلم واجب في العبادات فقط.



اعتاد بين فينة وأخرى، ان يزور بقايا محلته المنقرضة، متفقدا ملامحها، مستذكرا طفولته وصباه فيها، بدأت عنده هذه العادة منذ أن غادر مدينته وهو في سن الخامسة عشرة في بداية الستينات من القرن العشرين، ورغم أنه عاد إليها بعد ثلاثة عشر عاما، لكن تلك العادة قد ظلت تلازمه برغم تقدمه في السن وكثرة انشغالاته، يتذكر جيدا انه عند عودته إلى المدينة توجه إلى زيارة محلته القديمة على الفور، وقتها كانت المحلة عامرة كما تركها . . . لم تمتد إليها أصابع الزوال، لكن وجوه أهليها تغيرت كليا فلم يستطع التعرف على أي منهم، لقد رحل من رحل وهلك من هلك وكبر الصغار فتغيرت ملامحهم، أما الأزقة والبيوت فقد ظلت ثابتة إلى حين، محافظة على ملامحها القديمة، وهو يعلم أن كف الزوال لابد أن تخط حروفها عليها آجلا أم عاجلا، لقد شهد انقراض المحلة أولا بأول. . . هكذا. . . بعد ثلاث سنوات من قدومه شهد تهديم الرقعة الممتدة بين شارع الصادق وشارع زين العابدين من جهة العمارة، لم يتألم أحد من أهل المنطقة ولم يأسف، كان الجميع مشغولين بالتعويض والاستفادة إلى أقصى الحدود، حتى أنهم هدموا دورهم بأيديهم ليبيعوا أنقاضها بأبخس الأثمان، وظل وحده يكابد

الآلام، ويتجول بين الأنقاض، كثيرا ما شوهد يتسكع في تلك الأزقة المتهدمة في حر الظهيرة، ذاهلا... متأملا، كان يقف حزينا وهو يشهد رفاة خضر شلال تنقل من مرقده في سوق العمارة إلى وادي السلام، كان نذره المفضل حينما كان طالبا في الابتدائية أن يقف أمام مرقد خضر شلال ويقرأ الفاتحة على روحه، لم يكن يعلم لماذا يشعر بالدفء والطمأنينة كلما وقف أمام ذلك القبر وقرأ الفاتحة، كان يطيل الوقوف أمام الشباك متأملا الإيوان الذي يظلل القبر والموقد دائما... والأفرشة والستائر تثير فيه شعورا عميقا بالطمأنينة...

وحين علم أبوه بهذا الأمر فرح كثيرا وشجعه على ذلك، وبدأ يروي الكثير من كرامات ذلك الفقيه الجليل، ومما رواه أن المدينة أصابها المحل في إحدى السنين، فخرج الشيخ إلى وادي السلام ليؤدي صلاة الاستسقاء وكانت الغيوم تغطي سماء المدينة، لكن بعد أداء صلاته انقشعت الغيوم وأشرقت الشمس، فما كان من خصومه إلا أن يرددوا أهزوجة ساخرة:

«الشيخ رايح يلتمس

راح بغيم رد بشمس»

فما كان من الشيخ إلا أن يتجه في اليوم التالي إلى وادي السلام ويقيم صلاة الاستسقاء مرة أخرى... هكذا ظل يصلي حتى تلبدت السماء بالغيوم وانهمر وابلها بالمطر الغزير...

لقد هدّمت تلك الرقعة، ومعها المدارس الدينية الأثرية

الكثيرة، والمساجد القديمة، التي يعود بعضها إلى القرن الثاني عشر الهجري، مثل مسجد الشيرازي المجدد ومسجد الشيخ باقر قفطان ومدرسة الخليلي الكبرى ومدرسة الخليلي الصغرى، ومباني ودور محملة بالذكريات الوطنية والنضالية، مثل مسجد الحراب، الذي كان مصلّى للمقاتلين الذين كانوا يدافعون عن النجف بوجه هجمات الوهابيين في القرن التاسع عشر، ودور لعلماء لهم تاريخهم الكبير...

من ذكريات طفولته، أنه وأصحابه كانوا يشاكسون شيخا مسنا، من صفاته انه كانت تستفزه كلمة "ماجينا" حتى صارت لقبا يغضبه، وكان هو والصبية الآخرون ينادونه بتلك العبارة فيركض الشيخ وراءهم ملوحا بعصاه، فيفرون من أمامه ضاحكين، كان أمام هؤلاء الصبية زمن طويل ليدركوا أن ذلك الشيخ الخرف واحد من بقايا عائلة السيد كاظم الأخوند الخراساني زعيم حركة مشروطة والمنظّر لها، الأخوند أوّل من دعا إلى فتح المدارس فتأسست في النجف مدرستان العلوية والمرتضوية، ومازال الناس يتذكرون الفتوى الخطيرة بشأن المجلس الشورى الشعبي في إيران التي أطلقها وآزره عليها العلماء في النجف:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على القوم الكافرين إلى يوم القيامة، أما بعد فبالتأكيدات الإلهية، والمراحم السماوية وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن حضرة صاحب الزمان روحنا فداه، إن قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه، هي

قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفذوها، وعليه نكرر قولنا: أن الإقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الإقدام على مقاومة الدين الحنيف".

هكذا كانت هذه الفتوى بداية انقسام الناس بين فريقين: مشروطة ومستبد، حيث أمتنع السيد كاظم اليزدي عن التوقيع على تلك الفتوى قائلا أن مستبدا عادلا أفضل من مشروطة ظالم، فصار القوم فريقين متناحرين، كل يكيل التهم للآخر، لقد اتهم جماعة مشروطة بالكفر والزندقة والدعوة إلى هدم القيم والأخلاق، ما زال الفتى في طفولته يتذكر جانبا من الشتائم التي يكيلها الشيوخ لخصومهم ومن بينها كلمة مشروطة، وكأنها شتيمة بذيئة، لقد أخذ هذا الصراع جانبا جماهيريا واسعا وصار يجادل به العالم والجاهل دون علم، وكثيرا ما دخل هذا الصراع إلى ملاعب الأطفال، فصارت بعض ألعابهم تأخذ صورة للفريقين المتصارعين.

وسرعان ما امتد الجدل والانقسام بين مشروطة ومستبد ليشمل أجزاء أخرى من العراق كالكاظمية وكربلاء، لقد حصل في كربلاء اعتصام أمام القنصلية البريطانية الواقعة في محلة الخيمقه، اقتداء بما حصل في طهران، أثر فرض الحكومة ضرائب إضافية، لقد استمر ذلك الاعتصام خمسين يوما، وبعد أن فشلت الحكومة في إقناع المعتصمين بفض اعتصامهم أمطرتهم بوابل من الرصاص فسقط سبعون من المواطنين صرعى وعدد كبير من الجرحى، وفر الباقون.

ومما تجدر الإشارة إليه أن لهذا الصراع امتدادات عالمية، فقد كان لثورة 1905 الاشتراكية في روسيا دور في ذلك، فقد هرب عدد من الثوار بعد فشل تلك الثورة إلى إيران وأصدروا مجلات وجرائد ذات توجه ثوري، وبعد فترة وجيزة صار ذلك الصراع بين مشروطة ومستبد صورة للصراع بين الإنجليز والروس، فكثيرا ما استعان أنصار مستبد بالروس ولجأ أنصار مشروطة إلى الإنجليز.

كان المسنون من أبناء النجف يروون أن جماعة مستبد كانت تستعين بالشقاوات والعمايدية في مواجهة جماعة مشروطة، أما السيد كاظم الأخوند فقد التف حوله الكثير من العلماء والأدباء والملائية، وكان للكثير من الشعراء هجائيات لاذعة ضد اليزدي، ودعوته.

كانت الكتب والمجلات والجرائد الحديثة تصل إلى النجف سرا وكان شباب المشروطة يحرصون على إخفائها بين طيات ثيابهم، لئلا تقع في أيدي خصومهم.

ومن رجالهم المبرزين كان السيد محمد حسين النائيني، الذي ألف كتابا بعنوان "تنبيه الأمة في وجوب المشروطة" وهو واحد من تلامذة الأخوند الخراساني، وقد دعا فيه إلى أفكار جريئة من بينها تعليم المرأة وحرية الرأي، وغير ذلك، لقد صدر ذلك الكتاب عن النجف باللغة الفارسية، ثم ترجم إلى العربية ونشر تباعا في مجلة العرفان الصيداوية، لكن مؤلفه أوعز إلى نفر من تلامذته بأن يشتروا جميع النسخ الواردة إلى النجف، لئلا يطلع عليه الناس فيبتعدوا عن تقليده.

وبعد أن ألغي الدستور الإيراني من قبل الشاه محمد علي

وجه الأخوند رسالة شديدة إلى الشاه جاء فيها:

"يا منكر الدين ويا أيها الضال الذي لا نستطيع مخاطبتك بلقب شاه، كان المرحوم أبوك أعطى الدستور ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونية عن الشعب الذي كان في ظلام دامس قرونا عديدة، حيث انه لا يوجد في المشروطية شيء يخالف الدين... " ثم يختم رسالته بالقول: "واذا حصل تأخر منك عما قلنا فإننا سوف نحضر جميعا في إيران ونعلن الجهاد ضدك، ولنا في إيران أتباع كثيرون، والمسلمون كثيرون أيضا، فإننا أقسمنا على ذلك".

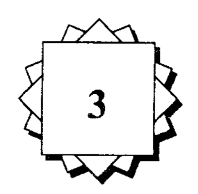
كانت آلاف النسخ من فتاوى السيد كاظم الأخوند الخراساني تطبع في النجف، وتهرب إلى إيران لتوزع هناك سرا، فكانت نهاية الشاه محمد علي بأن سقط حكمه على يد السردار أسعد زعيم عشائر البختيارية، بعد ان انطلقت الثورات ضده في تبريز ورشت وقزوين وإصفهان وغيرها من مناطق أيران عام 1909، حيث تم عزله وتتويج ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاما.

وفي عام 1911 احتلت القوات الروسية مدينة تبريز الإيرانية فأعلن العلماء الجهاد هناك، وفي العراق أوعز السيد كاظم الأخوند الدعوة إلى الجهاد فنصبت الخيام في النجف وبدأ التدريب على السلاح استعدادا لمهاجمة روسيا.، لكن الأخوند الخراساني قد فارق الحياة يوم 12 كانون الأول

1911، وقد انتشر بين الناس أنه مات مسموما بأيدي الجواسيس، ولم يصدقوا ما قاله طبيب الحكومة بأن موته بالسكتة القلبية، وبعد موته تفرق الناس عن الجهاد وانشغلوا بإقامة مجالس العزاء وإلقاء القصائد العصماء والخطب الرنانة في رثاء الفقيد.

ترى... أكان الشيخ الملقب "ماجينا" من أتباع مشروطة أم من أتباع مستبد؟!!... وهل كان يقدر العبء الثقيل الملقى على عاتق قريبه السيد كاظم الأخوند؟؟





انقضت أكثر من ثلاثين عاما وتلك العادة مازالت تزداد تأصلا في نفسه، عادة التسكع في أزقة محلته القديمة، فكثيرا ما استيقظ آخر الليل متذكرا أنه منذ زمن طويل لم يشهد ولادة الفجر في أزقة تلك المحلة، فينهض من فراشه، ويغسل وجهه على عجل ثم يتجه إلى ذلك المكان، قبل حلول صلاة الصبح، وبعد أيام يتذكر أنه لم يشهد حال المحلة عند الظهيرة، أتجه صوب ذلك الزقاق الأثير إلى قلبه، زقاق آل سميسم، ولعله آخر ما تبقى من معالم المحلة المنقرضة، هنالك تعتريه رعشة غير اعتيادية، وتستيقظ كل حواسه، ساعيا إلى إعادة الزمن إلى الوراء، فيبطئ في سيره إبطاء شديدا، حرصا منه على البقاء أطول مدة في ذلك العالم، وقبل أن يقتحم الزقاق يلتفت إلى الوراء، يدير بصره في الفضاء الممتد أمامه... يستذكر جبل شريشفان والأزقة الثلاثة المتشعبة منه، جبل شريشفان يعني عنده أمرا مهما، أنه الهوية الأولى بالنسبة له، أو البذرة الأولى لهويته، على تلك البقعة خرج إلى الدنيا، في ذلك البيت المتداعي في دولان آل مجدّع كانت ولادته.

رغم انه لم ير تلك الدار بعينه ولم تسعفه الظروف أن يلقي نظرة عليها من الداخل حتى هدمت كسائر بيوت

المحلة، لكنها ظلت في ذاكرته حتى النهاية قبل أن يمسح جبل شريشفان من خارطة المدينة، كان يلقي نظرة حادة خاطفة على ذلك الدولان المظلم كلما مر بزقاق آل مجدع، وبمرور الزمن استطاع أن يميز باب الدار فقط، دون أن يعرف صورتها من الداخل، بينما ظل اسم جبل شريشفان يتوهج في ذاكرته يوما بعد يوم، وتضاف إليه حكايات تزيده توهجا، أولى الحكايات يوم عرف أن جبل شريشفان واحد من الذكوات الثلاث البيض التي تحيط بقبر السميدع، وبذلك أدرك أن عشبة الخلود التي منحها جده إلى أول واحد يصادفه في طريقه إلى الثوية كانت قد قطفت من جبل شريشفان، هكذا ظل ينظر يمنة ويسرة كلما مر بتلك البقعة، عله يعثر على عشبة الخلود، لكن .. أنّى للعشب أن ينبت فوق تراب مطلي بالقار والإسفلت، ولعله يتذكر كم كان حزنه عميقا حين أبصر شفل البلدبة يقتلع جبل شريشفان من أساسه ويمحو كل معالمه ويساويه بالأرض.

لقد حمل جبل شريشفان هذا الاسم نسبة إلى المحدث السيد عز الدين أبي المحمد شرف شاه الذي سكن هذا التل عام 573 هـ، فحرفه العامة إلى شريشفان، مثلما حرفوا ذات يوم كلمة كوثي فصارت الكوفة، وشريشفان واحد من ثلاثة تلال كانت تحيط بالمرقد، أما التل الثاني فهو جبل النور الواقع في محلة البراق قرب جامع الطريحي، ويقع الثالث في محلة المشراق ويسمى جبل الديك، نسبة إلى رجل من النجف يحمل ذلك الاسم، كان يسكن هناك.

رغم كل شيء كان حزنه إيجابيا، فلم تمسح الهوية من

ذاكرته مع جبل شريشفان، بل تعمقت أكثر، واتسعت لتشمل المناطق المجاورة: عقد آل سميسم والسور والثلمة والباب الزغيرة، ثم امتدت إلى المدينة بأكملها والوطن بكل سعته.

يقتحم الزقاق.. يلتفت إلى الوراء.. يلج زقاق آل سميسم بكل هدوء.. يتأمل جدرانه وأبوابه المتداعية، يتفحص ما حل عليها من متغيرات فيحصي آثار الترميم الذي تعرضت له خلال نصف القرن، ويمعن النظر في النفايات المكومة أمام الأبواب، وربما أوعز إلى حاسة شمه أن تتقد بأقصى طاقتها؛ حتى يستطيع المقارنة الدقيقة بين حال مدينته اليوم وحالها قبل نصف قرن مضى. كانت روائح الأطعمة المنبعثة من بيوت ذلك الزقاق، تعيده إلى عهد الطفولة، وتفتح فيه نوافذ لاستذكار الماضي... حتى إذا وصل إلى نهاية الزقاق وانفتح أمامه الفضاء الواسع هتف بدهشة:

- ها... هذه المحلة مقصوصة !!!

للمرة الألف يصاب بالدهشة وكأنه يشاهد المكان لأول مرة... أين داره الأولى وبيوت جيرانه وملاعب طفولته... كلها لا وجود لها إلا في مخيلته، هكذا شاهد بكل وضوح منظر البحر والنخيل الذي أمامه لا يحجبه عن نظره شيء، سار خطوتين ثم توقف:

- هذا هو مسجد الحراب.

والحقيقة: لم يكن هناك مسجد ولا أي بناء آخر، لم يكن غير فضاء مطلق وسهل منبسط أمامه، حتى ينتهي بالمنحدر المفضي إلى البحر، ربما كان لمسجد الحراب وجود حقيقي قبل ثلاثين عاما، في طفولته شهد عملية ترميمه، وما زال

يتذكر تفصيلاتها، والرجال الذين تبرعوا من أجل إعادة تعميره منهم من تبرع بالنقود ومنهم من تبرع بكميات من الجص والطابوق ومنهم من تبرع بالعمل، منذ أن حلّ على هذه المحلة قادما من منطقة القباب الزرق، وهو يسمع الشيوخ يتحدثون عن هذا المسجد وكيف أنه شيد على تلك البقعة ليكون مصلى للرجال وهم يدافعون عن النجف ضد غزوات الوهابيين الذين كانوا يحاصرون المدينة بين آونة وأخرى.

وكان الوهابيون حين يأتون إلى النجف يتخذون من الرحبة مقرا لهم ومنطلقا، بينما يغلق أهل النجف أبواب مدينتهم، ويبقى الوهابيون يطوفون حول السور، وكلما وجدوا أحدا قتلوه ورموا برأسه إلى المدينة، وكانت أول معاركهم مع أهل النجف عام، 1214 إذ جاءت قافلة تجارية إلى بغداد، ومعها بعض الوهابيين، وبعد ان باعت ما عندها عادت ومعها قافلة من الحجاج العراقيين، وقد مرت القافلتان في النجف، وقد لاحظ الوهابيون أحد العراقيين يقبّل عتبة باب الإمام، فقتلوه، فقامت معركة بين الفريقين دامت ثلاث ساعات، قتل فيها من كل طرف قرابة المائة رجل، ونهبت أموال العراقيين وجمال الوهابيين وخيولهم.

وفي عام 1216 وبعد ان هاجم الوهابيون كربلاء وأباحوها، توجهوا إلى النجف، وأحاطوا بها، ووجهوا نيران بنادقهم إليها، فقتل من النجفيين خمسة، واشتدت المعارك وحمي وطيسها، حتى خرجت النساء يشجعن المقاتلين، واشتدت الاستجارة بالإمام، وفي عام 2006 قبل الميلاد، كانت مدينة أور تتحول إلى رَمِيمْ. . . في أبوابها العالية التي

فيها كانوا يتنزهون... رُميت جُثث الموتى... وفي شوارعها المشجرة.. حيث كانت تُنصب الولائم... استلقوا متناثرين، وفي كل طرقها... التي كانوا فيها يتنزهون... سُجيت جُثَث الموتى، وفي ميادينها... حيث كانت تقام الاحتفالات، استلقى البشر أكواما، أور... التي أكل الجوعُ أقوياءها وضعفاءها، ... وكَوَتْ النيران فيها الأبناء والأمهات الذين لم يبرحوا منازلهم، والأطفال المضطجعون في أحضان أمهاتهم، كالأسماك.. حملتهم المياه بعيدا، وفي المدينة.. هُجِرَت الزوجة وهُجِرَ الابن وانتثرت الممتلكات في كل جانب، أواه يا (نانا)، لقد دمرت أور وشرد أهلها.

ثم أن واقعة أخرى وقعت بين الوهابيين وأهل النجف عام 1221، وكان أبناء النجف قد استعدوا لمواجهتهم بقيادة الشيخ جعفر كاشف الغطاء، يساعده الشيخ محمد طه نجف والشيخ خضر شلال والشيخ مهدي ملا كتاب فأغلقوا أبواب مدينتهم، وجعلوا خلفها الصخور والأحجار، وفي الليلة التاسعة من صفر قبيل الصبح بساعة هجم الوهابيون، فصعد بعضهم السور وكادوا يأخذون البلد، لكنهم بعد ذلك تخاذلوا وشتت الله شملهم،، ثم أنهم ظلوا يقطعون طريق الزوار بين النجف وكربلاء، حتى أنهم قتلوا جمعا كبيرا من الزوار العجم في زيارة النصف من شعبان، وبقي العرب محاصرين قرب الحلة لأيام عديدة.

وكانوا إذا أقبلوا على النجف نزلوا في الرحبة، وأقاموا عند السيد محمود الرحباوي فيكرمهم ويحسن ضيافتهم، فما كان من الشيخ صاحب كاشف الغطاء، إلا أن جمع عددا من

رجال النجف وخصص لهم مرتبات شهرية وهيّأ لهم السلاح، وجعلهم مرابطين في حدود النجف، وقد بلغوا المائة رجل، وكان من بينهم سوادي العكايشي وعباس الحداد، وقد نجحوا في صد العدو عن مدينتهم، حتى انقطع خطره.

كان ذلك في عهد سابق، يوم كانت المدينة محاطة بسور عال، ولم يكن فيها غير الأطراف الأربعة الشهيرة: العمارة

والحويش والمشراق والبراق، يوم كان لذلك السور ثلاثة أبواب: الباب الكبيرة وهي قائمة في الجانب الشرقي من السور منها يخرج من يتجه إلى الكوفة، وباب القبلة، أو الباب الصغيرة، وباب ثالثة أنشئت متأخرة سميت بباب السقائين، لأنها واقعة قرب مضخة الماء، التي كان السقاؤون يتجمعون قربها، ويسميها البعض باب اشتابيه تصحيفا عن باب تابيه وتعني بالتركية الرابية لأنها تقع بالقرب من جبل الحويش، كانت تلك الأبواب تغلق بعد صلاة الغروب، وتفتح مع صلاة الفجر، ويكون أول الداخلين إليها هم باعة الماء، ينقلون قِرَب الماء على ظهور الحمير، منادين بأعلى أصواتهم: "ماء... فروع"، يقصدون ماءا فراتا، لأنهم كانوا يجلبون ذلك الماء من نهر الفرات الذي تقع الكوفة على ضفافه، لكن بعض السقائين يمارسون الغش فيجلبون الماء من الغدران المنتشرة على الطريق، وسرعان ما ينكشف للمواطنين غشهم من خلال الانتباه إلى رائحة الماء الآسنة وطعمه المج، فيعرضون عن شرائه، كان الماء وقت ذاك يشكل جانبا من نفقات العائلة ولذلك فإن الاقتصاد به ضرورة يحتمها الواقع فهو مخصص للشرب والطبخ فقط، أما

الاستحمام وغسل الملابس فيستعمل له ماء الآبار، فلا عجب إذا وجدنا مدينة النجف القديمة مليئة بالآبار، التي كانت جزءا ضروريا من مرفقات الدار، والذين تجاوزوا الخمسين من العمر من أهالي النجف يتذكرون جيدا الآبار العباسية في بيوتهم والتي يتجاوز عمقها الثلاثين مترا في بعض المواضع، كما يتذكرون الدلاء النحاسية المعلقة على مداخلها.

إن تلك الآبار تلتقي فيما بينها مشكلة حوضا أوسع من مساحة المدينة، يمكّن من يهبط في إحداها أن يخرج من بئر أخرى، وقد يستطيع الخروج من عين خارج المدينة تدعى بـ "النبعيّة"، تقع على الجهة الشرقية من البحر، بهذه الخصائص الجغرافية كان أبناء النجف يراوغون المحتلين الانجليز، خاصة في ثورة 1918، أثناء الحصار الذي فرضه المحتلون على المدينة، فكان البعض من الثوار يدخلون المدينة ويخرجون منها عن طريق تلك العين.

كثيرا ما حدثنا الشيوخ عن معاناتهم مع الماء أثناء حصار النجف عام 1918، فكانوا في الأيام الممطرة يخرجون كل ما لديهم من أوان وينشرونها على سطوح دورهم بانتظار أن تمتلئ بالماء...

ظل النجفيون معتمدين على تلك الآبار وعلى ما يجلبه السقاؤون من نهر الفرات حتى، دخلت الإسالة الحديثة.

هو لا يتذكر الأيام الأولى لولادة مشروع الماء، ولكنه سمع من ذويه، أن أول تأسيسه كان عام 1930 وكان لا يزيد على أنبوب قصير يمتد بين الطرف الجنوبي للمدينة وجدول غازية، هناك يعبئ منه السقاؤون قربهم ويوزعونها على

المدينة، ثم أخذت أنابيب الماء بالامتداد إلى كل أطراف المدينة.

في زمن الحارث بن عمر أحد ملوك الحيرة شق أول نهر من الفرات إلى النجف ثم إلى الحيرة بإشارة من أحد تبابعة اليمن. . .

وفي عهد الإسلام كان سليمان بن أعين قد حفر بئرا ارتوازية في مكان يسمى قبة السنيق وحفر منها قناة ظلت تسقي النجف وزرعت فيها البساتين لسنين طويلة. وقد تعرضت للخراب عند قيام ثورة القرامطة، وأصلحت في عهد عضد الدولة البويهي، وظل حفر القنوات بغية إيصال الماء إلى النجف متواصلا، حتى تم إقامة أول مضخة ميكانيكية عام 1330 هـ على فرات الكوفة.

حصل ذلك بعد ما يقارب القرن من الزمان على ولادة كلمتين غريبتين ودخولهما على المعجم النجفي إنهما: الزقرت والشمرت، وتعني الأولى الصقور، وكانت تتردد أولا على ألسنة الرجال المرابطين على حدود النجف لحمايتها من الغزو الوهابي، وصارت تطلق على جماعة واسعة من أهل النجف يقودهم عباس الحداد، وهم المتهمون بقتل السيد محمود الرحباوي، الذي كانت دياره مأوى للوهابية عند غزوهم النجف، اما المفردة الثانية فكان لفظها الأول هو الشمردل، وتعني الفتى السريع العدو، ثم حرفت إلى الشمرت، وقد انبثقت تلك الجماعة بعد مقتل الملا محمد طاهر، الذي كانت بيده حكومة النجف، مطالبين بدمه ودم السيد محمد الرحباوي، لقد قامت حرب ضروس بين الفريقين امتدت أكثر

المدينة، ثم أخذت أنابيب الماء بالامتداد إلى كل أطراف المدينة.

في زمن الحارث بن عمر أحد ملوك الحيرة شق أول نهر من الفرات إلى النجف ثم إلى الحيرة بإشارة من أحد تبابعة اليمن. . .

وفي عهد الإسلام كان سليمان بن أعين قد حفر بئرا ارتوازية في مكان يسمى قبة السنيق وحفر منها قناة ظلت تسقي النجف وزرعت فيها البساتين لسنين طويلة. وقد تعرضت للخراب عند قيام ثورة القرامطة، وأصلحت في عهد عضد الدولة البويهي، وظل حفر القنوات بغية إيصال الماء إلى النجف متواصلا، حتى تم إقامة أول مضخة ميكانيكية عام 1330 هـ على فرات الكوفة.

حصل ذلك بعد ما يقارب القرن من الزمان على ولادة كلمتين غريبتين ودخولهما على المعجم النجفي إنهما: الزقرت والشمرت، وتعني الأولى الصقور، وكانت تتردد أولا على ألسنة الرجال المرابطين على حدود النجف لحمايتها من الغزو الوهابي، وصارت تطلق على جماعة واسعة من أهل النجف يقودهم عباس الحداد، وهم المتهمون بقتل السيد محمود الرحباوي، الذي كانت دياره مأوى للوهابية عند غزوهم النجف، اما المفردة الثانية فكان لفظها الأول هو الشمردل، وتعني الفتى السريع العدو، ثم حرفت إلى الشمرت، وقد انبثقت تلك الجماعة بعد مقتل الملا محمد طاهر، الذي كانت بيده حكومة النجف، مطالبين بدمه ودم السيد محمد الرحباوي، لقد قامت حرب ضروس بين الفريقين امتدت أكثر

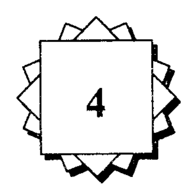
من ستين عاما، ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، وكان الملا محمد طاهر طاغية مستبدا، ومما يروى عنه، أنه كان يأمر بإغلاق أبواب الحرم ولا يترك إلا بابا واحدة هي باب الطوسي، ويجلس عندها وعبيده بكامل عدتهم، ويمر الجميع من أمامه، حتى إذا رأى واحدا ممن يشك بعلاقته بمقتل الرحباوي يحضره أمامه ويأمر بضربه ضربا مبرحا، محاولا أن ينتزع منه اعترافا بالجريمة، وغالبا ما يكون هؤلاء الضحايا من أصحاب الشيخ صاحب كاشف الغطاء، وظل على تلك الحال حتى تصدى له واحد من الزكرت فقتله في الحرم الشريف، فما كان من أصحابه إلا أن يأخذوا مواقعهم القتالية بان يلزموا المساجد والمآذن والدور الشاهقة، ويوجهون نيران بنادقهم إلى جهة الزقرت، وبادلهم الآخرون بالمثل.

هكذا ظلت الفوضى تهيمن على المدينة، لفترة طويلة، حتى جاء أمر تنحية الملا سليمان من منصبه وتعيين عباس الحداد مكانه حاكما للمدينة، فحكم النجف بصرامة وحزم وقتل بعضا من الشمرت والزكرت وشرد آخرين، حتى اشتدت شوكته، وصعب القضاء عليه إلا غيلة، فقتل في أحدى غرف الصحن الحيدري، على يد واحد من أتباع الشمرت، ليعود الملالي إلى الحكم مرة أخرى.

كان عباس الحداد شخصية حادة الذكاء قبل كل شيء يضع الأمور في نصابها المباشر، بدأ حياته صانعا لحداد يصنع السيوف، ثم صار واحدا من الذين كلفهم الشيخ جعفر كاشف الغطاء بحماية المدينة من الغزو الوهابي، وحين نجح وأصحابه بأداء تلك المهمة، صار محطّ ثقة الحوزة العلمية

وخاصة الشيخ جعفر كاشف الغطاء وأبنائه، حتى استطاع أن يصل إلى موقع حاكم المدينة، إذ ذاك صار خطرا على كل المتنفذين بل امتد خطره حتى على سلطة الوالي في بغداد، فصار عزله مسألة صعبة، قد تطلب جيشا كاملا، فكانت أنجع الوسائل هي التآمر من أجل اغتياله، هكذا تضافرت جهود أعدائه من اجل ذلك، فبعثوا من يقنعه بضرورة تعلم اللغات الأجنبية، من تركية وفارسية، ودسوا من يتولى أمر تعليمه، وقد كان معروفا عنه أنه لا يفارق خنجره، فأقنعوه أن متطلبات الوجاهة تقتضي أن يزين خنجره بسلاسل من الذهب والفضة، فصارت تلك السلاسل عائقا يعرقل انتزاع خنجره عند الحاجة، وبذلك صار أمر قتله مسألة ممكنة، وبمقتله طويت صفحة الحرب بين الزكرت والشمرت.





ظل شبح مسجد الحراب وجبل شريشفان ملازمين لمخيلة الفتى، لا يفارقانهما، برغم أنهما مسحا عن الخارطة تماما، في آخر مراجعة لهما شهد سلسلة من الفنادق ذات الطوابق الأربعة قيد البناء، تبدأ من الجهة الغربية للصحن وتنتهي عند مرقد صافي صفا اليماني، حتى انه واجه صعوبة بالغة في التعرف على مكان جبل شريشفان بينها، وحين تعرف على المكان شعر بنشوة غريبة، إنها نشوة الاكتشاف، واصل تحرياته ليحدد مسقط رأسه على وجه الدقة، وبيوت آل مجدع بيت بيت وينتقل إلى مسجد الشيخ جويدة، ثم عرج إلى عقد آل صبار، وراح يتخيل دوره بإمعان، ثم عاد أدراجه لينتقل من المتخيل إلى الواقع، هكذا ولج عقد آل سميسم، فوجده مازال قائما لم تمسسه يد التهديم. مثلما كان قبل خمسة وعشرين عاما، يوم غزته قوات الشرطة والأمن والطوارئ ومكافحة الأجرام ذات صباح، كان ذلك يوم 14/ تموز/ 1984، يتذكر ذلك بكل دقة وتفصيل، يوم طرقت عليه الباب فنهض بالفانيلة واللباس الداخلي، وحين فتح الباب واجهته قوات كبيرة من الشرطة والأمن مدججين بالسلاح، أقتحموا الدار وفتشوها تفتيشا دقيقا، ثم اقتادوه معهم إلى مديرية الأمن في حي السعد وهو لا يعرف من الأمر شيئا، هناك

وجد حشودا كبيرة من النساء والرجال قد عصبت أعينهم وقيّدت أيديهم بالكلبشات، وحين امتلأت قاعة البناية الأولى نقل البقية إلى البناية الثانية هكذا جمع هذا العدد الغفير بأقل من ساعة واحدة، وعند انتصاف الليل سمع صاحب عنوز، وكان زميله في مدرسة الصادق الابتدائية، يجيب على أسئلة المحقق بصوت عال، وما زال هو لا يعرف شيئا عن الموضوع، وفي ضحى اليوم الثاني نودي عليه ووجه له المحقق أسئلة روتينية، وأمره بمغادرة المديرية، كان الأمر الصعب هو أن يخرج إلى الشارع بالفانيلة واللباس الداخلي، ظل ينتظر أكثر من ساعة حتى توقفت له سيارة أجرة ووافق سائقها أن ينقله إلى داره في زقاق آل سميسم، في محلة العمارة.

بعد مغادرة المعتقل تبين له أن لصاحب عنوز أخا معدوما بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة، وظلت داره مراقبة والمنطقة كلها مراقبة لأكثر من عام كامل، وكان رجال الأمن المكلفون بالمراقبة كثيرا ما يتحرشون بعائلته، فاستشاط غضبا، وحمل مسدسه ووجه طلقتين إلى رأسي رجلي الأمن: فأرداهما قتيلين في الحال.

كانت تلك أول حادثة من نوعها تسجل في مدينة النجف، ولعلها آخر حادثة حتى نهاية العقد الثمانيني، وقتها كان الآباء والأمهات يتعرضون للاعتقال أذا ما هرب أبناؤهم من الخدمة العسكرية، وكثيرا ما شاهد الناس الشيوخ والعجائز معتقلين بسبب هرب أبنائهم، كما سجلت المدينة مواقف كثيرة خاصة بعد هزائم الجيش في الفكّة والشوش وبسيتين وشرق البصرة،

عن جثث كثيرة لجنود نفذ فيهم حكم الإعدام، لمحاولتهم الهرب من الجيش، وقد سلموا إلى ذويهم، بعد أن تعهدوا بأن لا يقيموا عليهم مجالس الفاتحة، ولا يظهروا عليهم علامات الحزن، وبعد أن دفعوا ثمن الرصاصات التي اخترقت أجساد أبنائهم.

كما ذكر لنا الشيوخ فيما ذكروا أن آخر قائممقام للنجف في العهد العثماني بهجت بيك طلب قوة من المشاة والفرسان للقبض على الهاربين من الخدمة العسكرية، فما كان من هؤلاء الهاربين إلا أن يثقبوا سور المدينة ويهجموا على الحامية العثمانية، وقد وجدوا العون الكبير من عامة أهل النجف، فدارت معركة شرسة بين الطرفين دامت ثلاث ليال، انتصر بعدها أهالي النجف فأضرموا النار في دور الحكومة وقتلوا عددا من الضباط والجنود وأسروا ما تبقى منهم، ثم أخرجوهم أذلاء مهزومين، وآل الحكم إلى رؤساء المحلات الأربع، فتشكلت منهم حكومة دامت سنتين.

لقد ظل الآباء والأمهات يتعرضون للاعتقال أذا ما هرب أبناؤهم من الخدمة العسكرية، ويدفعون ثمن الطلقات التي تمزق أجساد أبنائهم، حتى جاء اليوم الذي انتهت فيه قادسية صدام، وحلت على الناس أم المعارك، ودخل الجيش العراقي ارض الكويت وأعاد الفرع إلى الأصل، والقانون مازال قائما، والناس مازالوا يدفعون بسخاء ثمن الطلقات التي تمزق أجساد أبنائهم، والفتى يتذكر كل ساعة ما رواه أبوه ذات يوم عن اليوم الذي سقطت فيه بغداد على يد هولاكو، قال: كانت المرأة المغولية تدخل البيت البغدادي،

وتأمر صاحبه أن ينبطح على الأرض ورأسه إلى البالوعة، ثم تطوف في أروقة البيت بحثا عن سكين تذبح بها الرجل، وهو ما زال منبطحا ورأسه إلى البالوعة. . . لقد ظلت الصورة مرسومة في مخيلته لسنين طويلة، صورة الرجل المنبطح عند البالوعة بانتظار السيدة المغولية، حتى تتوجت الحرب بمعركة حاسمة مع القوات المتحالفة، وجاءت الساعة الثالثة من اليوم الثالث من الشهر الثالث من عام 1991، ورأى الناس ما لم يكن في الحسبان، لم يصدق الناس ما يحصل أمامهم، يا إلهي .. أفي الحلم أم في اليقظة!!!!، كيف لصبي في السادسة عشرة أن يهاجم بخنجر صغير كادرا حزبيا بدرجة عضو قيادة شعبة أو أكثر، ويجندله أرضا، ويستولي على مسدسه او بندقيته، في وضح الظهيرة وعلى مرأى ومسمع من الناس!!!

انسحب الحزبيون ذوو البدلات الزيتونية من الشوارع العامة إلى المقرات الحزبية، بينما ازداد عدد المهاجمين من الشباب، كانوا في البدء يأتون فرادى، ثم صاروا يأتون جماعات صغيرة، ويأخذون مواقعهم في مقابل المقرات الحزبية، ويطلقون النار على تلك المقرات، جماعات الشباب أخذت بالاتساع، صاروا يأتون بشكل تظاهرات كبيرة أنشودتهم واحدة:

«الله ومحمد وعلي والحسين ويانا»

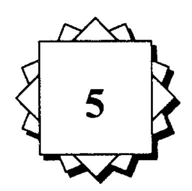
أصحاب البدلات الزيتونية يتراجعون. . .

يحل عليهم الخذلان، بعضهم يرمي بسلاحه إلى الأرض ويعبر سياج المقر، لائذا بالفرار، وآخرون يخلعون بدلاتهم

الزيتونية ويفرون بالفانيلة واللباس الداخلي. . . السعيد منهم من جاء إلى الواجب بالبدلة المدنية، فقد كان هروبه أكثر أمانا، صورة الرجل المنبطح بانتظار المرأة المغولية تغيب عن مخيلته، وتحل محلها صورة راعية الأغنام التي تأسر الجنديين والثلاثة بعصاها، حين حلت الساعة الخامسة كانت حامية النجف قد سقطت بأيدي الشباب، ومعها مقر الشعبة الحزبية في المدينة ومقر الشعبة في حي الأنصار، أما مراكز الشرطة فقد غادرها منتسبوها دون أية مواجهة.

أخذ الجنود يغادرون الحامية جماعات متجهين إلى بيوتهم، وسائط النقل كلها معطلة بسبب غياب الوقود وانقطاع الجسور، ويتذكر الفتى رواية والده عن معركة عبد الله بن الزبير، قال كانت مكة محاصرة من قبل جيش بني أمية لأيام عديدة، وجاءهم نبأ هلاك يزيد، فتفرق الجيش في الشعاب وصارت الوليدة التي ترعى الأغنام تأسر الرجلين والثلاثة وتأتي بهم إلى مكة.





واصل الفتى سيره الوئيد نحو الشمال، تجاوز الفندقين الجديدين المطلين على البحر ثم وقف على مرقد صافي صفا اليماني، وأطال الوقوف عنده، وجد نفسه على هضبة عالية وتحته انبسط سهل كبير تتقاسمه ثلاثة أشرطة ملونة، الأول يحمل صفرة الرمل تتخلله بيوت ريفية وقطعان من الجاموس، ومسننات صخرية متناثرة، يليه شريط أخضر، يستطيع الناظر إليه من تلك المسافة أن يميز النخيل على امتداد ذلك الشريط مبتدئا مما يقابل المقبرة هابطا إلى الجنوب حتى يغيب وراء مرمى البصر، فإذا هبط إلى السهل واجتاز الشريط الرملي، واجهته بساتين غنّاء تضللها النخيل السامقة وتحتها تنتصب أشجار الحمضيات والرمان وحقول مزروعة بمختلف أنواع الخضروات تمتد على جانبي جدول صغير مترع بالماء يسميه أهل المنطقة جدول غازية.

حتى إذا ما اجتاز الشريط الأخضر واجهته أرض زلقة عليها طبقة بيضاء من الملح، كلما أوغل فيها ازدادت رطوبتها وصار السير عليها أشد صعوبة، فإذا مدّ البصر صوب الغرب أبصر أمامه بركا مائية متناثرة وكثبانا عالية من الملح وأناسا يروحون ويجيئون ليجمعوا ذلك الملح من بين تلك البرك.

ذلك هو بحر النجف الذي كانت سفن الهند والصين

تمخره في سالف الأزمان، والذي تقع على ساحله الشرقي القصور المنيفة والأديرة العامرة كالخورنق والسدير، وحين أراد خالد بن الوليد فتح الحيرة سنة 12 هـ سأل عبد المسيح بن بقيلة قائلا:

- ماذا أدركت؟

فأجاب عبد المسيح:

- أدركت سفن الهند والصين تمخر في هذا النجف.

فلقد كانت تلك السفن تأتي من أقاصي الأرض إلى الأبلّة، قبل أن تبنى البصرة، وتأخذ طريقها النهري عبر الفرات لتنزل من جهة السماوة إلى بحر النجف عبر فروع الفرات وجداوله، ذلك هو الطريق المألوف إلى بحر النجف، حتى أن جيش المسلمين في عهد الفتوحات الأولى، حين وصل إلى منطقة أليس (السماوة) متجها إلى الحيرة، انقسم على قسمين: قسم سلك طريق الصحراء وآخر سلك طريق البحر.

لقد ظلّت الأهمية التاريخية لبحر النجف قائمة حتى العصر العثماني، إذ كان هذا البحر يستخدم لنقل الزوار والبضائع، وكانت سفن البرتغاليين تأتيه حاملة البضائع من أوربا، لتلتقي هناك بسفن الهند ويتحقق التبادل التجاري في النجف.

وتاريخ الإشارات إلى بحر النجف، يرجع إلى أزمان أقدم من العصر الجاهلي فقد ذكره الآراميون باسم فرقى، وفي العهد الساساني كانت التسمية الشائعة هي الجوف، بينما كان

اليونانيون في زمن الإسكندر الأكبر يطلقون عليه عبارة أهواري يوميا، وقد ورد على لسان إليهود تسمية هذا البحر بحاشور، ويعنون بها المياه المتجمعة من أصل واحد.

... تحرك بضع خطوات اجتاز مقام زين العابدين، إلى مبنى بسيط كتب عليه حسينية الدرعية، اتقدت عنده الذاكرة، حين أبصر لوحة على الجدار تضم صور الشهداء الذين أعدموا عام 1977، منهم من نفذ فيه حكم الإعدام ومنهم من مات تحت التعذيب، دون أن يصدر عليه حكم محدد، ذاكرته تتقد، الذكريات تنهال عليه مثل سيل جارف، ذلك هو صاحب رحيم وهذا ابن عجينة وأمامه الطالقاني وهو يتلوى تحت التعذيب، يتذكر ذلك جيدا، لقد سعت الحكومة إلى منع الزيارة، لكنها فوجئت برفض عنيف من الجماهير، لقد واصلت الجموع مسيرتها الراجلة لزيارة قبر الحسين، فكانت المواجهة في منتصف الطريق بين النجف وكربلاء عنيفة، جندت السلطة كل طاقاتها لقمع المواجهة، أجهزة الأمن تنقل من كل أنحاء العراق، تساعدها قوات من الجيش وطائرات سمتية، لتعتقل كل من يتجه إلى كربلاء ماشيا، ولتحتجز كل السيارت التي كانت توزع الطعام على الزوار، عشرات الألوف اعتقلوا، وهم يرددون أهزوجتهم المفضلة:

«لو قطعوا أرجلنا واليدين

نأتيك زحفا، سيدي، يا حسين»

وسرعان ما شكلت محكمة من ثلاثة من أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث، من أجل محاكمة هؤلاء الذين توجهوا

لزيارة قبر الحسين راجلين، أراد البكر وصدام للمحكمة أن تكون صورية، فرفض اثنان من أعضاء المحكمة ذلك، فكان السجن مصيرهما، أما ثالثهم حسن العامري فقد وقّع صاغرا على الأحكام التي أمليت عليه بالتلفون، هكذا نفذ حكم الإعدام بأحد عشر كوكبا، من بينهم: عباس عجينة وصاحب رحيم أبو كلل وكامل مال الله ومحمد سعيد البلاغي، وحكم على عشرات بالسجن المؤبد وعلى مئات بالسجن مددا مختلفة، أما الذين أطلق سراحهم دون أحكام فقد خرجوا معبئين بمئات الحكايات عن وسائل التعذيب التي واجهتهم هناك.

وهّاب عزيز الطالقاني واحد من أبناء المدينة المعروفين بمسالمتهم وبعدهم عن السياسة، تهمته أنه كان يقيم مأدبة عشاء ضخمة في كل مناسبة دينية، وفي عام 1977، وحين لمس إصرار السلطة على قمع الشعائر الحسينية زاد عدد القدور إلى ثلاثين قدرا، فكانت تلك جريمة يستحق عليها الموت، لم يقدّموا وهّابا إلى المحاكمة كما الآخرين، وإنما اقتادوه إلى باحة كبيرة في سجن رقم واحد، وأوقفوه أما مئات السجناء، كبّلوا يديه، وعصبوا عينيه، وأطلقوا النار عليه على مرأى ومسمع من السجناء، لإنزال الرعب عليهم وإرغامهم على الاعتراف.

تراجع الفتى إلى الوراء قليلا... الذكريات في اتقاد متواصل... إنها تتدفق بغزارة... إنها الثلمة... مخبأ الذكريات، أخذ تراجعه شكلا منظما، أدار ظهره إلى مقام زين العابدين، صار في مواجهة الفضاء الشاسع، انهمرت

عليه الذكريات انهمارا منظما، صار في مواجهة الخارطة الستينية للثلمة... هاهي تبزغ أمامه بوضوح أنه... الآن يقف قبالة الزقاق الطويل الممتد بين دار الحاجة كتبة وقنارة جاسم العكايشي، وبين العلامتين يقف بيت الخالة أم موسى، هناك تعلم كل صنوف الألعاب، تعلم الدعبل واللكو، وبعدها تعلم الضميمة والمرداد والحرامية والنواطير، خارطة الدار كانت أصلح ما تكون للعلبة الضميمة، دار خالته بسراديبها المتشعبة وغرفها الكثيرة وسطوحها المتداخلة العالية توحي أن المعمار الأول يوم بدأ ببنائها وضع نصب عينيه أن يجعلها مسرحا للعب الضميمة قبل أن تكون مسكنا، لذلك فقد ظل الفتى ورفاقه يمارسون اللعبة في تلك الدار لسنين عديدة، لا يملونها ولا يعتريهم السأم من تكرارها حتى كبروا وفرقتهم الأيام.

وأمام تلك الدار أيضا تعلم لعبة أم حجيم كانت لعبة تميل إلى العنف وكانت تقوم على القفز على ساق واحدة وشرطها الرئيس أن تتشابك أصابع الكف اليمنى لكل لاعب بأصابع قدمه اليسرى تشابكا لا فكاك منه، فإذا حصل الانفكاك وجب على اللاعب مغادرة الملعب، لذلك كان الفتى ورفاقه يخوضون غمار تلك اللعبة بحماس وصبر كبيرين، وقد تتمزق ملابسهم وقد تتسخ وهم يتمرغون بالتراب ويصطرعون فيما بينهم دون أن يدعوا أرجلهم تفلت من أيديهم،

تقوم اللعبة بين فريقين متساوي العدد: فريق العروس والفريق الآخر، يسعى أفراد الفريق الأول إلى حماية العروس والعمل على إيصالها سالمة إلى الهدف، أما الفريق الثاني

فهدفه الأساسي هو إسقاط العروس، فإذا سقطت أعلن فوز الفريق وخسارة الخصم، ويختار الفريق من بين أفراده عروسا، أخرى ويبدأ اللعب من جديد، لعل من أبرز ما يميز هذه اللعبة شبهها الكبير بلعبة الحكم في البلاد الشرقية اليوم، فالحاكم يتمسك بكرسي الحكم ولا يدعه يفلت منه كما تتشابك أصابع يد لاعب أم حجيم بأصابع رجله. حاول ان يتذكر أسماء الفتية الذين كانوا يشاركونه تلك اللعبة، تذكر اغلبهم وغاب بعضهم عن ذاكرته، وحين تبددت صورة اللاعبين عن ذاكرته وجد نفسه في العراء مرة أخرى، لم يطل الانتظار، قرر هذه المرة أن يستعيد الصورة بإرادته.

استعادها ثانية، هاهي الثلمة الستينية تنتصب أمامه، إنها ثلمته الأولى ما زالت كما تركها في بداية الستينات، حملت هذا الاسم لأن أهلها أحدثوا ثغرة في السور العظيم الذي كان يحيط بالمدينة في سالف الأيام ليتمكنوا من الدخول إليها والخروج منها دون الحاجة إلى المرور على الباب الزغيرة، كان ذلك في بدايات القرن العشرين، يوم كانت الدرعية تنتصب مقابل تلك الثغرة التي أحدثوها في السور العظيم، شامخة عارية من الأبواب لتعلن للضيوف، أن دخولهم مقبول في أي وقت يشاءون، يوم كان لصاحبها الحاج عطية أبو كلل شأن كبير، كان الكثير من شؤون المدينة يدار في تلك الدرعية، منذ آخر معركة حصلت بين الفارين من الجيش العثماني، والقوات التركية، فطرد النجفيون على أثرها الحاكم العثماني، وبقوا لأكثر من سنتين يحكمون أنفسهم بأنفسهم دون سلطة أجنبية، آنذاك بزغ نجم الحاج عطية بزوغا ساطعا بين رؤساء المحلات الأربع، وذاع صيته بين الناس خارج

النجف وداخلها، وحين دخل الإنجليز بغداد في 1917، منح الحاج عطية أبو كلل صلاحيات استثنائية من بينها توقيعه على شهادات التجار لجلب بعض المواد التي يحتاجونها، ولكن ثورية الحاج عطية وشجاعته جعلت الإنجليز يحتاطون منه، فتوجهوا إلى تحجيمه والإقلال من مكانته.



جموع غفيرة من النساء يخرجن من أزقة الثلمة وبير عليوي والباب الزغيرة ويتوجهن نادبات إلى الصحن الشريف، لقد أخذت الأزقة من المحلات الأخرى تصب ما في جوفها من نساء في السوق الكبيرة ثم تدخل الصحن أيضا لتلتحق بالجموع النسائية القادمة من الثلمة مكونة تظاهرة احتجاج ضخمة، كانت النسوة يشكين المجاعة ويلعنّ من قطع عليهن رغيف الخبز، ويطالبن بتخفيض الأسعار، بينما كان البدو من قبيلة عنزة يقفون متفرجين على هذا المنظر المضحك، وقد أتت الرسالة التي يحملونها من لكمن إلى حميد خان حاكم النجف أكلها، فابتاعوا توا ما يحتاجون من غذاء، مظهر النساء المحجبات وهن يولولن وينتحبن، مطالبات بالخبز، أغرى بعض البدو العنزيين ان يعلقوا تعليقات ساخرة لا تخلو من دلالات جنسية صريحة على ما يرون، لكن شباب الثلمة كانوا لهم بالمرصاد وما هي إلا لحظات حتى التحم الفريقان لتنشب بينهم معركة شرسة، يروح ضحيتها مقتل عدد من الإبل ونهب البنادق والأمتعة، هكذا توجهت أصابع الاتهام إلى الحاج عطية أبو كلل واعتبر الرأس المدبر لذلك الحدث.

قدم السيد حميد خان استقالته، ثم تم تعيين الكابتن بلفور

حاكما سياسيا للواء الشامية والنجف، واقتضى الأمر ان يجمع رؤساء النجف ويطالبهم بإعادة ما أخذه النجفيون من عنزة خلال أسبوعين، وفي 19 تشرين الثاني 1917، عاد إلى النجف ثانية، ولكنه لم يجد بانتظاره غير الحاج عطية أبو كلل وعدد من جماعته وكاظم صبي زعيم محلة البراق، هكذا وجد أوامر التنفيذ معطلة، فأسمعهما كلاما خشنا فما كان من الحاج عطية إلا أن يرد عليه الإهانة بالمثل، وأوعز إلى جماعته بالتمرد، فاستولوا على سراي الحكومة ونهبوه، وفتحوا باب السجن للسجناء، واقتادوا الكابتن بلفور إلى دار سادن الروضة السيد عباس الكليندار، وحصل مثل ذلك في أبو صخير والكوفة والخرم والأبيض، فهاجم أهلها سرايات الحكومة ونهبوا ما فيها من أثاث.

في الرابع من كانون الأول 1917، زار النجف السر برسي كوكس ليقف على ما جرى فيها من أحداث، فطلب حضور رؤساء المحلات الأربع أمامه في الكوفة فلبى الطلب ثلاثة منهم وامتنع الرابع عن الحضور وهو الحاج عطية أبو كلل ورغم تكرار الدعوة برسالة خطية من السير بيرسي كوكس، وبرغم نصائح المس بيل وتهديدها له بضرورة مثوله أمام الجهات الرسمية، لكن الحاج عطية أصر على عدم الحضور.

في كانون الثاني 1918 كانت جماعة مؤلفة من 150 رجلا من أتباع الحاج عطية قد أطلقت النار على قوة هندية تواصل تدريبها في السهل المجاور لمحلة العمارة فقتلت رجلا وجرحت آخر، فزحفت القوة على النجف.

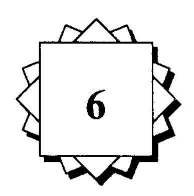
وعند الضحى ظهرت في سماء المدينة طائرة إنجليزية

فأطلق النجفيون النار عليها، ثم هاجموا سراي الحكومة، فهرب حميد خان وأتباعه إلى الكوفة، ففرضت على أبناء النجف عقوبة مقدارها 50000 ربية و500 بندقية مع تسليم كل من الحاج عطية وكريم الحاج سعد، وقد جمع مبلغ الغرامتين وسلّم كريم الحاج سعد بينما امتنع الحاج عطية عن تسليم نفسه.

وفي الأول من شباط 1918 بادر الكابتن ماريشال الحاكم السياسي للنجف إلى إنزال قوة بريطانية في خان الحاج عطية ونهب ما فيه من تجارة وجعله دارا للحكومة بدل الدار القديمة.

وكان من إجراءات مارشال حل جهاز الشرطة القديم لأنه كان مواليا لأبناء النجف، وتشكيل جهاز جديد من خارج المدينة، كما قطع المخصصات المالية الممنوحة لرؤساء المحلات الأربع، ونظّم أمور البلدية على أسس عصرية.





في ليلة 19 آذار 1918 اجتمع نفر من رجال النجف، وحلفوا أيمانا على قتل الكابتن ماريشال، واتفقوا على أن يعتمر ثلاثة منهم بالكوفيات البيض كزي الشرطة الشبانة، وأن يتسللوا من كوة في السور الملاصق لمحلة المشراق، ليجتمعوا في المقبرة بجوار دار الحكومة السابقة إلى بقية الرجال، وبعد أن نفذوا ذلك تخاذل منهم عدد فعادوا إلى المدينة، أما الذين أصروا على مواصلة التنفيذ، فقد انقسموا على ثلاثة فرق، اتخذت فرقة من السراي المهمل مكمنا لها لمراقبة الأحداث، وبقيت فرقة في المدابغ كقوة احتياط، أما الفرقة الأهم فقد قادها الحاج نجم البقال إلى خان عطية، حيث مقر الحكومة الجديد وكان يحمل مظروفا باسم الكابتن ماريشال، وادعى أنه حسن كصراوي وهو شرطي من أهل القصور يتولى نقل البريد من الشامية إلى النجف.

طرق الحاج نجم البقال الباب طرقا خفيفا ولما فتح الحارس البنجابي الباب عاجله محسن أبوغنيم بطعنة خنجر فخر قتيلا في الحال كما قتل حارسا آخر واخذ سلاحهما، ثم تقدم الحاج نجم إلى باحة الدار حيث يرقد الكابتن مارشال ورفيق له فبادرا إلى إطلاق النار، غير أن الحاج نجم قد سبقهما فأردى الكابتن مارشال قتيلا وجرح صاحبه. وكان أن

أخذ قبعة الكابتن ووضعها على رأسه وخرج دون أن يعترضه أحد.

وقد جرت مواجهة بالرصاص بين حراس المقتول وثلاثة من الثوار همّوا بارتقائه للسيطرة على من في الخان أو المفتول، أدّت إلى جرح عدد من الناس لا علاقة لهم بالأمر، ومقتل حسن جوري وجرح صادق الأديب وحميد بن حبيبان وحبيب بن جاسم خضير.

هكذا عاد الثوار بعد تنفيذ العملية إلى دورهم، وحرص الحاج نجم في اليوم التالي على فتح دكانه. وممارسة عمله اليومي كأن شيئا لم يكن، بينما أكد زعماء مدينة النجف أن الحادث دبر من الخارج وأن ليس لأبناء النجف أي دور فيه، غير أن حدثا آخر قد قلب الموقف، حيث أن أفرادا من رجال الشرطة الذين كانوا يتجولون في مدينة البراق قد تحرشوا بأبناء الشيخ سعد الحاج راضي، أحمد ومحسن وكريم، وأسمعوهم بعض الكلمات النابية وأمروهم بتسليم أسلحتهم، فتبادل الأخوة إطلاق النار مع رجال الشرطة، فخر شرطيان صريعين، لقد حصل ذلك وبلفور يتجول في طرقات المحلة ومعه رؤساء النجف ومن بينهم سعد الحاج راضي فغضب بلفور وأسمع سعد الحاج راضي كلاما خشنا ورد الشيخ سعد عليه بالمثل وإذ أدرك بلفور خطأه هم بالخروج من ذلك المأزق والنجاة من الخطر المحدق به، فتعقبه أولاد الشيخ سعد راضي وأطلقوا عليه النار ولكنه نجا منهم ثم توجه إلى الكوفة، وقد احتجز النجفيون أفراد الشرطة في دار السيد مهدي السيد سلمان رئيس محلة الحويش بعد أن سلبوهم

أسلحتهم وقد قام أبناء النجف بالاستيلاء على مقر الحكومة ونهب أثاثه.

أما الحكومة فقد ضربت الحصار على المدينة وأرسلت قوات كبيرة من بغداد لتحقيق ذلك الحصار، فامتلأت خانات الكوفة وشواطئها بهم وكثرت الخيام على الطريق الممتدة بين الكوفة والنجف وجعلت من مرقد الصحابي كميل بن زياد مقرا لقيادتها، وقد أغلقت أبواب السور الأربعة، وحرمت الأهلين شرب الماء وتركتهم يعتمدون على شرب ماء الآبار غير المستساغة.

وحين فرض الموفق حصاره على البصرة، أثناء ثورة الزنج،

اشتد الجوع بالناس حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب والجرذان، وحين طال الحصار عليهم، أخذوا يأكلون لحوم الموتى، حتى أن أحد رواة التاريخ أخبرنا أنه مرّ بامرأة فوجدها تبكي بحرقة، وحين سألها عن حالها، قالت أن لها أختا كانت مريضة وكانت هي ساهرة على رعايتها، حتى وافاها الأجل، عندها هجم الناس عليها وأكلوا لحمها ولم يتركوا للأخت غير الرأس.

وبعثت حكومة الانجليز برسالة إلى السيد محمد كاظم اليزدي بواسطة السيد مهدي السيد سلمان جاء فيها:

"إلى حضرة آية الله الحاج سيد محمد كاظم الطباطبائي دامت بركاته.
لقد أصدر صاحب الدولة قائد الجيش العام الأوامر

اللازمة بإخماد الفتنة التي وقعت في النجف الأشرف وكدرت خاطره كثيرا، وقد أصدر أيضا الأوامر بإلقاء القبض على المفسدين الذين سببوا هذه الفتنة، وبالمحافظة على سلامة البقعة المباركة الشريفة، وسلامة حضرات العلماء الأعلام دامت بركاتهم، والمجاورين لذلك البلد الطاهر، ولا شك في أن القبطان بلفور سيطلع حضرتكم على هذه الأوامر، والتي إن لم يطعها أهالي النجف الأشرف ويرضخوا لها، فلا بد أن تحصل بواسطتهم المضايقة على حضرات العلماء الأعلام الساكنين في النجف الأشرف. وأنا على يقين تام بأنكم ستساعدون السلطات البريطانية وتعاونوها بثاقب فكركم وعالي همتكم وحسن نيتكم على تهدئة أحوال البلد الطاهر وإخماد الفتنة الحالية، إذ أنكم تعرفون حق المعرفة حسن نية الحكومة المعظمة، ومساعيها الكثيرة التي تبذلها لإعلاء المبادئ الدينية التي يتدين بها أهالي العراق، وإنقاذ شعوبه من المظالم والمفاسد السابقة، وإننا لمنتظرون مساعيكم المشكورة، أدامكم المولى ملاذا للإسلام والسلام."

الحاكم الملكي العام في العراق

على أثر تلك الرسالة عقد السيد كاظم اليزدي اجتماعا في مدرسته لأبرز شخصيات المدينة ودعاهم إلى تدارس

الموقف، ولم يحقق ذلك الاجتماع شيئا إذ طالب أبناء النجف بالعفو العام حلا لهذه المشكلة، بعدها وصلت رسائل إلى الكثير من وجوه النجف تدعوهم إلى الحضور إلى المكتب الرسمي للحاكم الانجليزي للمداولة في المعالجات الجادة لحل تلك الأزمة، والاستماع إلى رأي الحكومة البريطانية في الأمر،وقد أوصى أن يحمل القادمون علما أبيض لئلا يتعرضوا للأذى، على هذا الأساس جرت دعوة كل من الشيخ محمد جواد صاحب الجواهر والشيخ جعفر آل الشيخ راضي والشيخ محمد حسين الجعفري والمرزا محمود أغا الهندي وكليندار الروضة الحيدرية السيد عباس الرفيعي وعمه السيد هادي الرفيعي والسيد مهدي السيد سلمان وآخرين لمقابلة الكابتن بلفور، وعند حصول اللقاء أخبرهم بضرورة خضوع النجف للسلطة العسكرية وتسليم المفسدين تسليما مطلقا وجمع كمية من السلاح كفدية، وأن ذلك هو قرار القائد العام للجيوش البريطانية وهو غير قابل للمناقشة.

وفي 25 آذار رفعت برقية إلى القائد العام للجيوش البريطانية هذا نصها:

لحضرة القائد العام لجيوش بريطانيا العظمى - بغداد.
نحن العلماء في النجف الأشرف نرفع الشكوى عنا، وعن عامة الفقراء والمساكين والمجاورين في هذه البلدة المقدسة، مستغيثين بمراحم هذه الدولة وعدالتها، مسترحمين رفع هذا الأسر والحصار عن الأبرياء والضعفاء، الذين لا جناية لهم ولا تقصير

ولا رضاء واشد البلاء قطع الماء فإنه من العقوبات التي لا تسوغ في جميع الأديان البشرية، فإن لم تكن رحمة للرجال فإننا نسترحم الرأفة على النساء والأطفال وحاشا لهذه الدولة المعروفة بالرأفة والعدالة والقوة والسطوة أن تأخذ الأبرياء بالأشقياء، وقد أشرفت النفوس على التلف، والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الأسواق، وهذه المعاملة ضربة على جملة العالم الإسلامي، جارحة لعواطف عامة المسلمين، غير موافقة لما هو مألوف من سياستكم الجميلة، فيجلب عواطف عموم المسلمين، فالمأمول إعمال التدابير الحازمة في رفع هذه الغائلة على وجه لا تهلك إلا الأبرياء والضعفاء بإصدار العفو العام وتأمين البلاد وأنتم أعرف بذلك.

وقد أضاف السيد اليزدي ملاحظة جاء فيها:

حسب الظاهر أن إطفاء هذه الغائلة عن هذا البلد المقدس موقوف على العفو العمومي وفيه المصلحة.

وقد بعث القائد العام برسالة إلى السيد اليزدي وعامة الشعب عبرت عن غرور المحتلين وغطرستهم، وقد أمر بنشرها في الجريدة الرسمية مع الشروط المفروضة على أهل النجف الأشرف، وقد تضمنت: تسليم القتلة ومن وقف معهم دون قيد أو شرط، وغرامة مقدارها ألف تفكة وخمسين ألف

ربية، وتسليم مائة شخص بوصفهم أسرى حرب إلى الحكومة البريطانية. وقد أضاف أن النجف ستبقى محاصرة حتى تنفذ هذه الشروط بأكملها.

لقد سعى الثوار إلى مغادرة المدينة خلسة، بعد مرور سبعة عشر ليلة على الحصار، ففي ليلة مدلهمة بالغيوم والرعود توجه الثوار إلى التسلل عبر الأسلاك بغية مغادرة المدينة فانهمر عليهم سيل من الرصاص الكثيف ونيران المدفعية، وكاد الانجليز يسيطرون على المدينة لولا تكاتف أبنائها، ومساندة بعضهم للبعض الآخر، فاستطاعوا أن يصدوا ذلك الهجوم الكاسح، وألغى الثوار فكرة التسلل عبر الأسلاك، وظلوا يدافعون عن مدينتهم.

لقد بعثت جمعية النهضة الإسلامية رسولا إلى العشائر المجاورة تطلب منها العون، لقد خرج الرسول من باب الثلمة في محلة العمارة، لكن سرعان ما ألقي القبض عليه واقتيد إلى مقر القيادة في الثوية، وهناك حوكم محاكمة صورية ونفذ فيه حكم الإعدام.

لا يحتاج القوي المستبد إلى أن يقيم محاكمة عادلة، يطلب فيها شهود عدل وأدلة ثبوتية على الجريمة، فقوته هي مصدر عدله، وتذكر الفتى حكاية قديمة رواها أبوه عن زياد ابن أبيه، قال قرر زياد منع التجول على البصرة من غروب الشمس حتى شروقها، وفي ليلة احضر شرطته إعرابيا كان يسير في الطريق، فاقتادوه إلى زياد، فلما سأله عن السبب أجاب، بأنه جاء يبحث عن ناقة مفقودة ولم يسمع بقرار منع التجوال، وبعد تأمل قال زياد أراك صادقا في كلامك، ولكن في قتلك صلاح

للأمة، وأمر بقطع رأسه، لذلك فإن الفتى لم يدهش بقرار المحكمة الصورية وتنفيذ الإعدام بحامل الرسالة!!!!

وقد أرسلت الجمعية رسولا آخر استطاع الوصول إلى هدفه من باب السقاءين والعودة إلى المدينة سالما، لقد استطاع ذلك الرسول إيصال الرسائل التي يحملها إلى رؤساء العشائر وجلب الردود عليها والدخول إلى النجف مرة أخرى سالما.

لكن تلك الردود كانت تتضمن الاعتذار عن المشاركة وتقديم الدعم بحجة أن القوات البريطانية في عانة استولت على وثائق للجيش العثماني تتضمن المراسلات مع جمعية النهضة الإسلامية، وفيها أسماء زعماء العشائر المتعاونين مع الجمعية وقد حال الجيش البريطاني بين هذه العشائر وبين تقديم الدعم لثوار النجف.

توجه علماء الدين والأوساط السياسية إلى عقد سلسلة من الاجتماعات في عدد من البيوت النجفية، كان من أهمها الاجتماع الذي عقد في دار آل صاحب الجواهر، وقد اتفقوا على رفع برقية جوابا على تلغراف الحاكم البريطاني العام، وقد أشاروا فيها إلى تعرض معابد المسلمين إلى القصف، وجاء الرد على لسان الكابتن بلفور شديدا، وقد أنكر عليهم اتهام الجيش البريطاني لقصف المعابد والحرمات الإسلامية، وقال أن ذلك إدعاء باطل فهم لم يوجهوا نيرانهم إلا على الأشقياء الذين يطلقون النار عليهم.

في صباح الأحد الموافق 7 / نيسان/ 1918 وجهت القوات البريطانية نيران مدافعها إلى جبل الحويش لأكثر من

ساعة، بعدها توجه السيك والكركة وهم يحملون القنابل اليدوية إلى ارتقاء التل، واحتلال مواقع الثوار الذين يحرسونه، ومن الجدير بالذكر أن الحراس المتخندقين على التل كثيرا ما كانوا يغادرون مواقعم مع إطلالة الفجر ليأخذوا قسطا من الراحة في بيوتهم، هكذا تمت السيطرة على النجف، إذ سرعان ما سيطر الانجليز على التلال المجاورة وانسحب الثوار إلى داخل المدينة، بينما أوعز المتعاونون مع الانجليز إلى أهل محلتهم أن يرفعوا على سطوح منازلهم الأعلام البيض علامة على الاستسلام، كما توجهت جماعات من ضعاف النفوس إلى عرض فروض الطاعة للانجليز، فاضطر رؤساء المحلات إلى مقابلة بلفور فجرت المقابلة وكرر طلباته السابقة بضرورة تسليم المطلوبين للسلطة شرطا لرفع الحصار. لقد استمر الانجليز في فرض حصارهم على النجف وزادوا في ذلك بأن رموا في الآبار الخارجية كميات كبيرة من الملح لإفساد الآبار داخل النجف، وقد وجهوا نيران مدافعهم إلى باب الثلمة، بعدما بعثوا برسالة إنذار إلى السيد اليزدي بذلك.

وقد توجه أنصار الانجليز إلى البحث عن الثوار بغية تسليمهم إلى أسيادهم، فكانوا يقبضون على الواحد والإثنين يوميا بصعوبة بالغة، ثم وضعت السلطة جوائز مغرية لمن يقبض على الواحد منهم، فبدأ تعذيب النساء،وكيهن بالنار لانتزاع اعترافات عن مكان أبنائهن، وبعد أن تجاوز عدد المقبوض عليهم مائة وعشرين شخصا أصدر ت قوات الاحتلال البيان الآتي:

"لما كان العصاة في النجف لا يزالون يطلقون النار على جنودنا من وراء الأسوار، ومن التلال التي تبتدئ من محلة الحويش، وكانت هذه التلال مكمنا لهم احتل جنودنا التلال في 7 نيسان، وقد اتخذت جميع الاحتياطات حتى لا يقع أدنى ضرر بالمدينة المقدسة، ويمكننا الآن أن نعضد السيد مهدي بن السيد رحبي شيخ محلة الحويش الصادق للحكومة، وأن نردع العصاة عن القيام بأعمالهم العدائية"

لقد ظل المسئولون يلاحقون المطلوبين بكل ما في وسعهم، ونادى المنادي بالناس للمرة الثانية محذرا إياهم من إيواء المطلوبين مهددا إياهم بالإعدام، وظلت الطائرات تحوم في سماء النجف في أغلب أيام الأسبوع لإنزال الرعب في نفوس المواطنين.

وفي 26 نيسان استدعى بلفور رؤساء النجف بضرورة جمع الفدية التي أمروا بتسديدها سابقا، وقد توجه بلفور إلى زيارة السيد كاظم اليزدي يحف به ضباطه وأبلغه بضرورة التسليم وقدم قائمة بأسماء المطلوبين إلى السلطة من رجال الدين، فاضطروا إلى تسليم أنفسهم طائعين، وكان من بينهم السيد محمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري، وقد أصر بلفور على ضرورة تسليم أربعة من الثوار وهم عباس علي الرماحي وعلوان علي الرماحي وكردي بن عطية أبو كلل وكريم الحاج سعد.

بعد ذلك أحضرت الحكومة عددا من الزوارق، ونقلت المعتقلين من خان الحاج محسن شلاش إلى الزوارق مصفدين

بالقيود الحديدية، وقد وقفت جموع كثيرة من الرجال والنساء يودعونهم بحزن بالغ ودموع غزيرة، وقد نقلوا إلى بستان في المسيب ثم نقلوا إلى المحمودية وهناك نقلوا في شاحنات قطار إلى منطقة أم العظام في كرادة مريم، وبعد سبعة أيام نقلوا إلى العمارة، وبعدها إلى البصرة حيث أرسلوا بباخرة حربية إلى الهند، مع حشد كبير من الأسرى الأتراك. وحين بلغت الباخرة بومبي وجدوا بانتظارهم أعدادا من المسلمين، ووزعوا عليهم ألبسة نظيفة، ثم جرى نقلهم إلى منفاهم في سمربور، وبقوا هناك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

في الرابع من أيار 1918 شرعت الحكومة في رفع الحصار عن النجف، فنقلت المواد الحربية إلى قواعدها في الكوفة، وباشرت برفع الأسلاك الشائكة من بعض مواضعها، ثم قدم الكابتن بلفور، وأزال من أمام مدخل السوق الكبير الحاجز الشائك، ثم أزيلت الحواجز عن باب الثلمة والباب الصغيرة، فتنفس الناس الصعداء وتوجهوا إلى الكوفة مشيا على الأقدام وخرج بعضهم إلى شواطئ النجف للتنزه.

بعد ذلك تألفت محكمة في الكوفة برئاسة الكولونيل لجمن وحكمت بإعدام ثلاثة عشر متهما وحبس تسعة، ونفي مائة وثلاثة وعشرين شخصا إلى الهند، قد أبدل حكم الإعدام بالسجن المؤبد بحق المرزة عباس الخليلي، واستطاع آخر الإفلات والنجاة من ذلك الحكم الجائر، لقد نفذ الحكم صبيحة يوم 29 مايس 1918 وسط حشد كبير من الناس ضم مشايخ النجف والشامية في خان محسن شلاش بالكوفة بالسادة كريم وأحمد ومحسن أولاد الحاج سعد وسعيد مملوك

الحاج سعد وكاظم صبي ومحسن أبو غنيم وعباس علي الرماحي وعلوان علي الرماحي والحاج نجم البقال وجودي ناجي ومجيد دعيبل.

هكذا ظن الانجليز أن الأمور قد استتبت لهم بإعدام هؤلاء الرجال، ولم تمض عدة أشهر حتى بدرت من الإنجليز حركة جديدة، ففي 11 / كانون الأول / 1918 وصل الحاكم الملكي العام إلى النجف والتقى بوجهائها وشخصياتها ليستطلع آراءهم في مصير العراق بعد تحرره من التسلط التركي وقد بدأ الحاكم الملكي حديثه بالقول:

- إن بريطانيا عادلة ومن عدلها أنها تريد معرفة رأي السكان في تقرير مصيرهم.

فرد السيد هادي الرفيعي قائلا:

- لا نريد غير الإنجليز.

وكان جواب الشيخ عبد الواحد آل سكر:

- بل نريد حكومة عربية وطنية.

- أهذا رأيك أم رأي الجميع؟

تساءل الحاكم العام.

- هو رأيي الشخصي، وأكثر الحاضرين يؤيدونه .

وعلق الشيخ محمد رضا الشبيبي قائلا:

- إن الشعب العراقي يرتأى أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وإن العراقيين يرون أن من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالا تاما، وليس فينا من يفكر في اختيار حاكم أجنبي.

حاول الحاكم الانجليزي أن يطلع على الآراء الأخرى فوجدها مطابقة لرأي الشيخ الشبيبي وبعد حوار طويل ختم السيد علوان الياسري الجلسة بالقول:

- لما كان المدعوون غير مسبوقين بالموضوع فهم يرجون إمهالهم إلى الغد للاتصال بالعلماء وبقية الرؤساء.

- فوافق الحاكم العام على تلك المهلة على أن تبعث الإجابة بوساطة الميجر نوربري.

وقد التقوا في اليوم التالي في دار السيد اليزدي في الكوفة فكان جوابه:

- اختاروا ما هو أصلح للمسلمين.

وما أن انتقل المجتمعون إلى دار السيد نور الياسري لاستكمال مناقشة الأمور، وإذا بالشرطة تداهمهم فتفرقوا، وتوزعوا بين قبائلهم في الشامية وأبي صخير.

وبعد يومين التقوا في دار حاكم الكوفة ليقدموا له مضبطة يطالبون فيها أن يكون العراق "الممتدة حدوده من شمالي الموصل إلى خليج فارس حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم، هو أحد أنجال الملك حسين، على أن يكون مقيدا بمجلس تشريعي".

وقد جاءت وفاة السيد كاظم اليزدي في 30 نيسان 1919 لتؤدي دورا إيجابيا في تمتين أواصر الأخوة بين الشيعة والسنة، وبذلك سعى الوطنيون إلى دعم تلك القوة الكامنة، وقد خلفه على المرجعية الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي، وكان داعيا إلى تمتين العلاقة بين الشيعة والسنة،

وتتويجا لهذا التآلف كانت تقام احتفالات دينية في مساجد الشيعة والسنة تتلى فيها المناقب النبوية ثم تختم بقصة الإمام الحسين، وخلال ذلك يتحدث الخطباء عن الأوضاع السياسية للبلاد فيؤججون المشاعر الوطنية، وبذلك صارت الاحتفالات الدينية فعاليات سياسية تحسب لها السلطة حسابها

لقد بدأت الاستعدادات باجتماعات سرية في مدينة النجف من أهمها الاجتماع المنعقد أواخر جمادى الأولى سنة 1338 حيث تقرر فيه نشر الدعوة الواسعة إلى الثورة على الانجليز، وجرى تكليف الشيخ محمد علي قسام والشيخ باقر الحلي بالتحريض على الثورة.

وعقد اجتماع آخر سري تحت رئاسة الشيخ الحائري حضره كل من الشيخ عبد الكريم الجزائري والزعيم جعفر أبو التمن والسيدين نور وعلوان الياسري والسيد هادي آل زوين وشعلان أبو الجون وغثيث الحرجان وعبد الواحد آل سكر وشعلان الجبر ودارت بينهم مناقشات طويلة انتهت بالاتفاق على الثورة ضد المحتلين.

وفي ليلة 16 من شعبان 1338، اجتمع الزعماء في الحضرة الحسينية وأقسموا على إعلان الثورة على الانجليز.

وبعد عدة اجتماعات عقدت في كربلاء وبغداد والنجف أصدر الشيخ الحائري بيانا دعا فيه العراقيين إلى إرسال وفود إلى بغداد للمطالبة بحقوقهم، فقدمت على اثر ذلك مضابط توكيل من عدد من المحافظات، وقد طلب مندوبو النجف والشامية إلى الميجر نوربري أن يحدد لهم موعدا للاجتماع به، فوافق الميجر وحدد لهم موعدا يوم 26 / رمضان/

1338، وفي اليوم التالي تراجع الميجر نور بري عن قراره، وأبلغهم انه لا يستطيع الاجتماع بهم قبل أن يأتيه جواب الحاكم العام بهذا الشأن، فرفض المندوبون قبول هذا العذر، فدعا الشيخ محمد رضا الحائري، النجل الأكبر للأمام الحائري إلى مظاهرات كبيرة في صحني الحسين والعباس.

وكان رد فعل الحكومة البريطانية، أن أوعزت إلى الميجر بولي حاكم الحلة أن يقبض على مثيري تلك الأحداث. هكذا توجهت قوة بقيادة الميجر بولي إلى كربلاء فاحتلت مداخل المدينة، وإذ استدعى الشيخ الحائري الميجر بولي ليحذره من خطورة الأفعال التي يسعى إلى ارتكابها، ولكن الميجر بولي قد امتنع عن الحضور واكتفى بتوجيه كتاب إلى سماحته يعلن فيه أن قواته متوجهة لحفظ الأمن في كربلاء ولاعتقال المفسدين، وقد رد عليه الشيخ الحائري بالرسالة الآتية:

"إلى الميجر بولي الحاكم السياسي في الحلة هداه الله...

قرأنا كتابكم وتعجبنا غاية العجب من مضمونه، حيث أن جلب العساكر لمقابلة الأشخاص المطالبين بحقوقهم المشروعة الضرورية لحياتهم من الأمور غير المعقولة، ولا تطابق أصول العدل والمنطق بوجه من الوجوه، ويحتمل أن يكون الأشخاص الذين يقصدون الإفادة من إيجاد الخلاف بين أهالي العراق والانكليز هم الذين يغشونكم لينالوا بواسطته مقاصدهم، وفي الليلة الماضية أردت مقابلتكم لرفع الشبهة من نفسكم كي لا تغفلوا عن هذه النكتة، ولكنكم امتنعتم عن

ذلك، وإن نظرياتنا في أمور المملكة أنفع وأصلح في سوق الجيوش واستعمال القوة الجبرية، وأدعوكم عجالة لأبلغكم: أن توسلكم بالقوة في قبال مطالب البلاد، واستدعاءاتها مخالف للعدل ولإدارة البلاد، وإذا امتنعتم عن المجيء في هذه المرة أيضا، فتصبح وصيتي بخصوص مراعاة السلم ملغاة من ذاتها، واترك الأمة وشأنها، وبهذه الصورة تقع مسؤولية كل نتائج السوء عليك وعلى أصحابك. وفي الختام لي الأمل أن تؤثر فيك هذه النصيحة كي لا يقع ما يفسد النظام والأمن كي لا تكونوا سببا في إراقة دماء الأبرياء".

وفي النجف عقد اجتماع واسع في مسجد الهندي دعا له السيد قاطع العوادي، نودي فيه بالأمير عبد الله ملكا على العراق. وقد دعا بعض الحكام الانجليز إلى اعتقال الشيخ عبد الكريم الجزائري، فرفض حاكم لواء النجف والشامية هذه الفكرة.

وبعد اعتقال نخبة من أهالي كربلاء من بينهم الشيخ محمد رضا الحائري، أصدر الإمام الحائري الفتوى الآتية:

"مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانجليز من قبول مطالبهم".

كما وجه شيخ الشريعة رسالتي احتجاج إلى الحاكم

الملكي العام يطالب فيها بإطلاق سراح المعتقلين وفي مقدمتهم نجل الإمام الحائري، أعقبت ذلك رسالة من رؤساء عشائر الفرات الأوسط. يدينون فيها اعتقال نجل الإمام الحائري. وكان آخر الوساطات تدخل الحكومة الإيرانية لدى الإدارة الملكية البريطانية بواسطة سفيرها في طهران، وقد جرى إطلاق سراحه فورا وبعثه إلى طهران للإقامة هناك.

وفي الفرات الأوسط عقد اجتماع في مضيف عبد الكاظم الحاج سكر في المشخاب، تداولوا فيه الواقع السياسي الجديد في المنطقة، وانتهى بإلقاء قصيدة من قبل الشيخ باقر الشبيبي أثار فيها الروح الحماسية في نفوس المجتمعين ثم أضاف قائلا: يا معشر خزاعة. إن لمحمد عليكم دينا يوم قال حين ضرب الخزاعي من قبل أحلاف قريش: "لا نصرني ربي إن لم انصر خزاعة" ومحمد اليوم في حاجة إلى نصرتكم فهل تفون اليوم دينه؟

عندها جرد سلمان العبطان سيفه، وأطلق الجميع هوسة:

«بس لا يتعلك بامريكه»

وكان الفتى عند هروبه وعائلته إلى قرية مجيهيلة، يوم سلط الجيش مدفعيته الثقيلة على المدينة، ولأيام عدة، كان يتأمل كل يوم الدروب والبساتين بحثا عن مضيف عبد الكاظم آل سكر، وعن وجه سلمان العبطان ورفاقه الآخرين الذين أطلقوا هوساتهم في مضيف الشيخ عبد الكاظم، مع علمه المؤكد أن عظامهم قد غدت رميما، لكنه كان يشتهي لهم أن يشقوا القبور، ويزيحوا التراب عن أجسادهم، ويواجهون

قوات الطاغية مثلما واجهوا قوات الإنجليز، قبل واحد وسبعين عاما.

وكان آخر اجتماع بين الحكومة وعشائر الفرات الأوسط دعا له الميجر نوربري حاكم النجف والشامية، وقد طلب إلى الشيخ مجبل الفرعون التوسط بحمل الزعماء الماقطعين للحكومة على زيارة النجف للالتقاء بهم، فأجابه الشيخ بأن ذلك مستحيل فاتفق معه على ان يعقد الاجتماع في دار الحاج مرزوك العواد وعقد الاجتماع المذكور في 7/ تموز وقد حضره الكابتن مين بدلا من الميجر نوربري وكانت خلاصة مطالبهم هي: أن يتعهدوا بالحفاظ على النظام مقابل تحقق أربعة شروط:

الاستقلال التام للعراق. وقف القتال في الرميثة، انسحاب القوات البريطانية عن الفرات الأوسط إلى العاصمة، إطلاق سراح الميرزا محمد رضا الشيرازي، وقد وافق الكابتن مين على الشرطين الأول والثاني ورفض الشرطين الآخرين.

وفي 11 تموز 1920 ضرب كل من الشيخ عبد الواحد آل سكر والسيد علوان الياسري والسيد هادي زوين وعشائرهم نطاقا على قصبة أبو صخير، فتحصنت بسراي الحكومة مستعينة بالباخرة الحربية فاير فلاي، وإذ وصل الحاج رايح العطية والشيخ سليمان العبطان إلى الكوفة، لإيصال الكابتن مين، قدم إليهم اقتراح بمعاودة المفاوضات من جديد مع الحكومة، فاشترطا حضور العلماء واشتراكهم بتلك المفاوضات، هكذا عرض الحاج رايح العطية على شيخ الشريعة مقترح الحكومة، فدعا الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد صاحب

الجواهر للتفاوض، وجرى الاتفاق على عقد هدنة، يجري من خلالها إخراج حامية أبي صخير وإيصالها سالمة إلى الكوفة، وقد نفذ الثوار ذلك الأمر بكل دقة بينما لم تنفذ الحكومة أيا من الشروط المتفق عليها، وفي اليوم الثاني لاحظ الثوار مظاهر النقض فبادروا إلى إطلاق النار على الحامية فانتقضت بذلك الهدنة المتفق عليها.

وحين وصل الفتى إلى مدخل أبي صخير من جهة المشخاب، تخيل الشيخ عبد الواحد آل سكر والسيد علوان الياسري والسيد هادي زوين يضربون نطاقا على مدينة أبو صخير، فتتحصن بسراي الحكومة مستعينة بالباخرة الحربية فاير فلاي، وتخيل نفسه واحدا من عشائرهم التي تضرب ذلك النطاق الآن وتحكمه بشدة على رقبة القوات العسكرية التي احتلت مدينة أبو صخير في العشرين من آذار عام 1991، وتقدمت متجهة إلى المشخاب، وتخيل حربا ضارية تقوم بين القوات العسكرية وأفراد العشائر، في حين كان يرى بأم عينيه الانكسار الشديد الذي كان ينعكس في عيون الجنود والضباط المتجهين إلى المشخاب، وما تركته الهزيمة النكراء في حرب الخليج الثانية على معنوياتهم، هو لا يعلم من أين جاءت هذه القوات، والذي يعرفه جيدا أن الجيش العراقي تعرض إلى هزيمة نكراء أو كارثة مروعة، وأن الطاغية قد رمى بكل ثقله في مواجهة قوات التحالف، لقد قتل من قتل في تلك المعارك ومن سلم من القتل فقد تم أسره من قبل الأعداء، ومن سلم من الموت والأسر فقد عاد الى أهله، ناقما ليلتحق مع الثوار في مدينته، كانت الناس تنتظر سقوط العاصمة بيد الثوار لحظة بعد أخرى، مثلما كانت تعتقد أن

قوات التحالف ستواصل تقدمها الى بغداد حتى تسقط النظام تماما، ويتذكر هو بدقة، قولة لرجل كان يتأمل طائرة أمريكية محلقة، ثم يلتفت إليه ويصرح قائلا بفرح:

- هذه طائرات بوش التي ستخلصنا من صدام حسين.

كان الرجل يأمل في أن يبدأ معه حوارا طويلا، لكنه خيب ظنه حين واصل سيره دون أن يعلق بشيء، أدرك الفتى بثاقب حسه أن على بوش أن يتحول إلى صديق لصدام، في تلك اللحظة، مثلما فعلت بروسيا عند قيام كومونة باريس، ومثلما فعل مصعب بن الزبير بتحالفه مع علية القوم في الكوفة أيام المختار، هكذا تحالف الجيش المنتصر والجيش المهزوم، من أجل القضاء على أحفاد النبط، فبعث بوش برسالة ودية حميمة الى صدام حسين يدعوه فيها إلى أن يسارع بالقضاء على تلك الانتفاضة، تتجسد تلك الرسالة بتصريح متواضع الى أجهزة الأعلام يعلن فيه بوش أن صدام حسين قادر على أن يقمع ما يحصل في العراق بسهولة.



في هذه الأثناء توفي المرجع الأعلى للشيعة الشيخ الحائري، في وقت شملت الثورة جميع مناطق الفرات الأوسط ممتدة بين المحمودية والناصرية، كما انبثقت حكومات مؤقتة في الكثير من المدن العراقية المحررة هدفها الأول حفظ الأمن والاستقرار، وتكون مجلس بلدي في مدينة النجف من السادة عبد الرزاق شمسه وعباس شمسه واحمد ناجي ومحمد جواد عجينة وكردي أبو كلل وعلوان الخرسان

وسعيد كمال الدين وحسين الظاهر وأنشئوا له حرسا خاصا للأمن ومراقبين صحيين، وتشكلت هيئتان محليتان،الأولى برئاسة الشيخ جواد صاحب الجواهر وعضوية الحاج محسن شلاش والسيد مهدي السيد سلمان، والثانية من كردي أبو كلل وحسين آل ظاهر وعلي جريو ومهدي السيد سلمان والحاج عبد الله الشمرتي وغيدان عدوه وحسون شربة والحاج محمد الشرباوي.

كما تشكلت هيئة علمية عليا تشرف على مختلف شؤون الدولة، وكانت برئاسة شيخ الشريعة وعضوية الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري والشيخ مهدي الملا كاظم وموسى تقي زاير دهام والشيخ اسحاق حبيب الله، والشيخ مشكور الحولاوي والشيخ علي الحلي والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي والشيخ أحمد الملا كاظم وعبد المحسن شلاش والسيد محمد علي بحر العلوم والسيد محمد رضا الصافي والسيد علي السيد حسين والشيخ علي المانع.

أما بشأن المرجعية فقد اتجهت الأنظار إلى شيخ الشريعة، ليكون خلفا للشيخ الحائري، وكان أن ألقى كلمة قصيرة في الناس قال فيها:

> "أيها الناس من كان يعبد منكم محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، لقد مات الإمام الشيرازي فذهب إلى لقاء ربه، وقد أدى الرسالة أداء حسنا، فليرقد في محله قرير العين هادئ النفس مرتاح الضمير، وعلينا أن نسير وراء خطواته".

ثم حث الثوار على المضي في سبيلهم، ودعا إلى توحيد الصفوف.

أما الحكومة متمثلة بالحاكم العام الكولونيل ولسن فقد بعثت برسالة إلى شيخ الشريعة خليفة الإمام الحائري تعزيه بمصاب المسلمين بوفاة الحائري وتعبر فيه - في الوقت نفسه- عن القوة الكبيرة التي تتجسد بالحكومة الملكية البريطانية، والقدرات الكبيرة التي تتميز بها، والتسليح المتطور الذي تمتلكه، وأنها ستجازي بعض المشايخ الذين ظلموا الناس، وفي الختام يدعو الحاكم الملكي العام إلى التفاوض ويشكل من جانبه لجنة مفاوضة برئاسة الكولنيل هاول ويترك لشيخ الشريعة تعيين من ينوب عنه في تلك المفاوضات،

لقد نشرت آلافا من ذلك الكتاب على الناس بواسطة الطائرات كما نشرته في الجرائد الصادرة في العراق آنذاك.

ونتيجة لذلك فقد اختلفت ردود أفعال الناس على تلك الرسالة، فمنهم من كان يريد تنظيم مطالب الثوار بطريقة قابلة للتنفيذ عن طريق المفاوضات، يتمثل هذا الرأي بالشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد صاحب الجواهر والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والفريق الآخر كان متحمسا لمواصلة القتال ورافضا للمفاوضات، وكان الشيخ علي مانع من أنصار هذا الفريق، ومعه زعماء الثورة الذي أوقدوا نار الحرب ضد الانجليز، وكان شعارهم لا مفاوضات قبل الجلاء، وكانوا يرددون أنهم سيستعينون بالمكوار إذا أعوزتهم الأسلحة.

وإزاء هذا الموقف بعث شيخ الشريعة جوابا على رسالة

الحاكم الملكي العام ضمنها لومه الشديد للسياسة القمعية التي يمارسها الانجليز ضد أبناء العراق، وختمها بالقول:

"ورأينا في الأمر أن يمنح العراقيون استقلالهم التام خاليا من كل شائبة، عاريا عن كل قيد"



وبعد ان انتقضت الهدنة بين الحكومة وعشائر العراق هجم الكوفيون على الزوارق التي كانت تحمل العتاد للإنجليز، عندها لاذ الميجر لوربري في أسواق الجسر، وظل الانجليز يعتمدون على الغذاء الذي يرمى عليهم من الطائرات، ولولا ذلك لماتوا جوعا، وكان الكثير من المواد التي تلقيها الطائرات تسقط في أيدي الثوار، ومن الأمور التي حصلوا عليها، رزمة وجدوا فيها خططا عسكرية، يمكن للثوار أن يستفيدوا منها، كما غنمت العشائر مدفعا من عيار 18 بوند، استطاعوا استخدامه بشكل جيد، خاصة في مواجهة الباخرة فاير فلاي، وخاصة بعد أن استعانوا بضباط من بغداد، فبمجرد أن صوبوا نيران المدفع عليها استطاعوا قلبها وتدميرها، فلم يبق لدى الانجليز غير الطائرات تصب حممها على الثوار، ومما مارسته إحدى الطائرات أنها في 8 / ذي القعدة 1338، ألقت على مسجد الكوفة حمم نيرانها فقتلت وجرحت عشرين شخصا، وسقطت إحدى القذائف على امرأتين فمزقتهما وفتكت بثلاثة أطفال، وخربت مقام القضاء، وعلى أثر ذلك اصدر الانجليز البيان الآتي:

"وافت الأنباء منذ بضعة أيام، من مصدر ذي شأن يعتمد على صحته، أن جامع علي في الكوفة يستعمله الشيوخ العصاة مركزا لأعمالهم، وبينما كانت الطائرات محلقة فوق الكوفة أطلقت عليها النار من هذا الجامع، فقابلتها الطيارات بالمثل، غير عالمة أنه جامع وألقت قنابلها في جواره، ومع ذلك وإن كان هذا الجامع وغيره من الجوامع قد استعمله العصاة لأغراض عسكرية فقد صدرت الأوامر بأن لا تلقى عليها القنابل حتى وإن كانت مستعملة بمثابة مواقع لإطلاق النار على جنودنا".

لكن صدام حسين لم يصدر أي بيان بخصوص ضرب القبة الحيدرية بالمدافع، واعتبر الأمر شيئا هينا وواصل تقدمه لتمشيط المدينة، وحين وصل الى مقام زين العابدين، وعثر فيه على قطع سلاح مرمية، أمر بنسف المبنى بأكمله.

لقد انتهى الحصار المضروب على حامية الكوفة في صباح يوم 19/ تشرين الأول/ 1920، ويفيد بلاغ صادر عن القوات الانجليزية أنّ حامية الكوفة قد خسرت تسعة قتلى وفقدت اثنين من رجالها وجرح سبعة عشر منهم، كما قتل الكابتن ستانلي والكابتن مان وأربعة جنود بريطانيين، وقد بث الثوار الألغام تحت الاستحكامات الشمالية، وكانوا يستعملون القنابل اليدوية، وإن المركب فاير فلاي الآن جالس على الطين ومهشم، وقد صوب رجالنا نيران رشاشاتهم على رجال المدفعية وأبادتهم جميعهم، وقد فقدت القوة التي أنقذت

الحامية أحد عشر قتيلا، بينما كبدت الثائرين خسارة جسيمة وأسرت أربع مائة شخص، وقد أفادت المعلومات أن عدد المرابطين من العشائر أمام حامية الكوفة كان ألفين وخمس مائة شخص، وقد اشترك في القتال جنود مانجستر والسيك والمهارتا وقد اشتركت الطائرات في المعركة، وقد أحرق قسم من المدينة بنيران المدفع الذي غنمه الثوار وقد أحرق جانب من السوق في محاولة أضرام النار في معاقل الإنجليز، وقد ظلت المناوشات مستمرة لمدة شهر.

أما النجف فقد تلقى مجلسها الأعلى إنذارا بوجوب تسليم الأسرى المعتقلين فيها قبل بزوغ شمس العشرين من تشرين الأول، وقد تشكل وفد يمثل المدينة لإيصال الأسرى وإعلان الطاعة للإنجليز، وقد تم تسليم الأسرى في الموعد المذكور وصدر بيان بذلك، وفي الرابعة عصرا تم توقيع الوفد على عهد يتضمن قبول كل ما ترتئيه السلطة على المدينة، والموافقة على تسليم المدينة تسليما مطلقا. كما أمرت الوفد بتسليم كل من الحاج محسن شلاش والشيخ محمد جواد صاحب الجواهر والسيد محمد رضا الصافي والسيد عزيز الله والشيخ حسن نجل شيخ الشريعة، فتم تسليمهم وجرى اعتقالهم، كما فرضت على النجف غرامات من البنادق والمدافع.

وكان الفتى وهو يدون هذه الأحداث، يتساءل في سره، ويعقد المقارنات بين هذه الأجراءات، والإجراءات التي اتخذت في أعقاب ما جرى في آذار 1991، حيث كان يقابل هذه الغرامات، قرار صدام حسين بفرض ضريبة العشر على الثوار العراقيين، وهي ضريبة كان يطبقها الرومان على

الشعوب الأجنبية الثائرة عليها، من هنا فقد تقرر قتل عشرة بالمائة من أبناء العراق، وجعل المقابر الجماعية مقرا لهم.

وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني زحفت الآلاي ال55 على مدينة النجف ودخلتها قبيل الظهر، وقد سدت أبواب السور على أهلها ولم يسمح بدخولها ومغادرتها إلا بجواز، هكذا بقي النجفيون لمدة شهر دون طعام معتمدين في شرابهم على مياه الآبار حتى فتكت الأمراض بالناس.

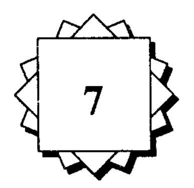
بينما بقي الثوار في أبي صخير والحيرة يدافعون عن مواقعهم ويشنون هجماتهم على قوات الانجليز، وقد أفادت البلاغات العسكرية للانجليز أن الطائرات كانت تهاجم مواقع الثوار في أبي صخير والحيرة،

وفي مطلع تشرين الثاني من عام 1920بدأ عدد من الزعماء بتسليم أنفسهم إلى السلطة دون قيد أو شرط من بينهم الشيخ حمد البدن والشيخ حامد الجياد وجاسم الصعب ومحسن الحاج عبود ومحمد الفليح والسيد حبيب الوادي والسيد كاظم السيد نور والسيد جعفر أبو طبيخ وجبار الصالح وعباس العلوان. وكان من أبرز الذين سلموا أنفسهم إلى السلطات الانجليزية هو الشيخ عبد الواحد آل سكر زعيم آل فتله.

وكان قد توجه إلى الحجاز إثنا عشر زعيما هم: السيد علوان الياسري والسيد نور السيد عزيز ومحمد جعفر أبو التمن والحاج صلال الموح والحاج مهدي فاضل والشيخ شعلان الجبر والسيد هادي المكوطر والحاج رايح العطية والسيد محسن أبو طبيخ والحاج مرزوق العواد وعلوان الحاج

سعدون وعمران الحاج سعدون، وقد قام الأمير ابن رشيد بإيصالهم إلى الملك علي، ثم توجهوا إلى مكة للقاء الشريف حسين، وقد أخبرهم أن الأمير فيصل قد عاد من لندن حاملا استقلال العراق، وقد تنازلوا بناء على رغبته، عن بيعة الأمير عبد الله إلى الأمير فيصل وانتهى الأمر، بأن صحبه خمسة منهم في مجيئه إلى العراق، وبذلك توقف الوقد الثوري في قلوب الثائرين إلى حين، وتوقف سيل الذكريات الجارف في ذاكرة الفتى المتسكع في طرقات الثلمة منسلخا عن زمنه.





تاريخ مدينته هو تاريخ هدم وبناء مستمرين، يوم كان في الثامنة شهد هدم جانب من محلة الحويش، ليصير بعد خمس سنوات شارعا عامرا اسمه شارع الرسول، وبعدها شهد هدم مناطق من البراق والمشراق والعمارة لتصير بعد ذلك شارع الصادق وشارع زين العابدين، عند هدم البيوت المجاورة لمنطقة القباب الزرق أحسّ بخسارة فادحة، كان كلما مرّ بذلك المكان تعتريه رعشة، ربما هي رعشة الحنين إلى الماضي؛ فيتجه إلى تلك القباب ويلج الأزقة الملتوية، كأنه يسعى إلى الحفاظ على ما تبقى من الأمكنة، ليطمئن إلى أنّ مسجد آل الجواهري ما زال في مكانه، وما زال المصلون يرتادونه، وما زال إمامه يطيل الركوع عند السجدة الأولى ما دام المصلون يتقاطرون إلى الجامع، فيهتف المصلي الجديد فور دخوله (يا الله) ويتجه صوب الماء ليتوضأ، وعلى ذلك الإمام أن ينتظره حتى يكمل وضوءه ويدخل في صلاة الجماعة، والإمام على وضع الركوع، ودكان صاحب كطاف ما زال في مكانه أيضا، وإن أغلق الدكان المقابل له وألحق بغرف الدار، يواصل الفتى طريقه فينعطف للمرة الرابعة ليلج عقد آل كاشف الغطاء، ليحصي الدور القائمة على جانبيه، هذه مدرسة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قائمة كما تركها منذ طفولته الأولى ببنائها

القديم دون أن تظهر عليها آثار التصدع والتآكل، ترى أما زال التدريس قائما بها!!! أم توزع شيوخها في أماكن متباعدة، بيوت الأسرة الكاشفية مازالت ممتدة على جانبي الزقاق، وعلى الجهة اليسرى يلقي الفتى نظرة عميقة وسريعة، أنه عقد آل الأعسم، يبدأ بدار آل الصراف، ثم يتشعب إلى شعبتين عقد آل الجواهري وعقد آل الأعسم في نهاية ذلك الزقاق كانت الدار التي شغلتها عائلته لسنتين، وقتها كان عمره بين الخامسة والسابعة، لكنه ما زال يتذكر حدثا مهما:

في أحد الأيام عادت أمه من السوق قبل أوانها بكثير الأمر الذي أثار الاستغراب، كانت تلهث من التعب والقلق يهيمن عليها، وبدأت تقص ما شاهدته في طريقها، قبل أن نسألها عن الأمر:

فحين وصلت إلى دورة الصحن رأت حشدا من الرجال الملثمين يجتمعون بالقرب من باب الطوسي، تتقدمهم قطعة قماش طويلة بيضاء عليها كتابة باللون الأحمر، وقد رفعوا واحدا منهم على أكتافهم كان ذلك الرجل يقول كلاما غريبا بلهجة غاضبة ثم يختم كلامه بالقول: "ياه"، فتردد الجموع: "يسقط" ويتكرر المشهد ثلاثا، ثم يواصل كلامه مجددا.

قالت النسوة المتحلقات حولها: "ياه .. هذي مظاهرة" وتوجهن نحو دورة الصحن لمشاهدة المظاهرة، كانت تلك أول مرة في حياته وربما في حياة أمه وجدته تسمع بلفظة مظاهرة، وقبيل الغروب سمعت لعلعة الرصاص تأتي من جهة دورة الصحن، كان الأمر كله غريبا على أمه القادمة إلى النجف من هور الصحين في محافظة ميسان، ووسط ذلك

الهلع الذي تثيره أصوات الرصاص وخوف الأمهات على أبنائهن كانت أمه تسعى إلى معرفة جوهر الأمر، فتجيبها بعض النسوة أن هؤلاء المتظاهرين هم من الشيوعية، وهم نفر من الكفار الذين لا يعبدون الله، وأنهم يريدون أن يجلبوا لنا الروس وحين تسأل عن المقصود بالروس تأتي الإجابة جاهزة: "إنهم المسقوف" وتبقى أمه حائرة بين هذه الطلاسم، أما هو فقد حلم ليلتها: أن دارهم كانت محاصرة بكتل من الرؤوس البشرية التي تتدحرج دون أرجل أو قامات، وظلت تلك الصورة (صورة الرؤوس المتدحرجة) تداعب مخيلته كلما سمع بلفظة الروس، لا أكتمكم سرا إذا قلت لكم أن صور الرؤوس المتدحرجة تقف أمام أنظاره كلما قرأ شيئا عن شكلوفسكي أو اختنباوم أو أي من الشكلانيين الروس.

في مساء اليوم الثاني والثالث تكررت لعلعة الرصاص في دورة الصحن وتكرر صخب النسوة وعويلهن، وفي صباح أحد الأيام زارت العائلة قريبتهم أم كاظم لتحذر أمه من خطر يحدق بها، قالت لها إن هؤلاء الشيوعيين، كفار لا يخافون الله، وهم يسعون إلى الاستيلاء على أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، ونصحتها أن تخفي ما لديها من نقود في حفرة تحت الأرض، هكذا صدّقت أمه الحكاية واعتقدت أنها من الأغنياء الذين جاءت الاشتراكية لضرب مصالحهم ومصادرة أموالهم، وبعد أن غادرت السيدة دارهم رأى أمه وجدته تتشاوران، ثم تخرجان قلادة بثلاث ليرات ذهبية، هي مهر أمه عند زواجها من أبيه ومعها ديناران هي كل الذي تركه لها أبوه قبل سفره إلى إيران، لفت القلادة والورقتين بقطعة قماش ودستها في صفيحة صغيرة وحفرتا لها حفرة وأخفتاها هناك

وفرشتا عليها الحصران، لم يطل الأمر كثيرا فسرعان ما أدركوا أن عددا من الفتية من جيرانهم ومعهم واحد من أبناء أم كاظم هم من أولائك الشيوعيين الذين كانوا يتظاهرون عند شارع الطوسي، ومرت الأيام والليالي لكن أيّا من هؤلاء لم يفكر باقتحام الدور وسلبها أموالها وتوزيعها على الفقراء.

لم يكن لفظ الشيوعية غريبا على مسامع أمه، لكنه كان يثير في نفسها الدهشة والغموض، هي تتذكر جيدا شقيق جارتها صفية الذي أعدم قبل عدة سنوات، حصل ذلك بعد سنة واحدة من وصولها إلى النجف، ولعلها تتذكر جيدا كيف أنها عجزت عن اللقاء بصفية لمواساتها بمصاب أخيها، كانت كلما توجهت إلى دار أم كريم، وطرقت الباب يخرج لها أبو كريم ويقول لها أن أم كريم خارج البيت، وأخيرا سألت أحدى جاراتها عن سبب اختفاء أم كريم، فأخبرتها أن أخا صفية وهو الشيخ حسين ابن الشيخ مهدي الساعدي، لم يمت ميتة طبيعية، وإنما نفذ فيه حكم الإعدام شنقا لأنه كان شيوعيا، ومن ثم فإن زوجها لا يريد إظهار علامات الحزن على الفقيد، لأن في ذلك قطع لرزقهم، لذلك فهو يأمر زوجته كل صباح أن تغادر البيت إلى المقبرة، لتفرغ أحزانها هناك، ولئلا يسمع الناس نحيبها على أخيها الشيوعي... عندها كفت أمه عن زيارة دار أم كريم... وظلت لفظة الشيوعي أمرا يكتنفه الغموض، ويثير في ذاتها كثيرا من التساؤلات... ترى كيف يكون المرء شيخا ابن شيخ وشيوعيا في ذات الوقت، وصاحبتها صفية التي تكبرها بأكثر من عشر سنوات، ألم تكن من أكثر النساء تدينا، وأشدهن التزاما بالشعائر، فكيف يكون أخوها شيوعيا؟؟؟؟

كانت نسوة المحلة يتهامسن فيما بينهن عن مداهمات تعرضت لها بعض البيوت واعتقالات لعدد من الشباب كان من بينهم عبد الحسين البهادلي وطالب الهدابي وجواد الغراوي، كان وأقرانه الصبية يصغون إلى تهامس النسوة ويحفظون ما يقلنه بالتفصيل، هكذا كانت تتسرب إليهم مواقف سيدات المدينة من أمهات الموقوفين، وكيف أصرت هؤلاء النسوة على مقابلة القائممقام صالح حمام والمطالبة بإطلاق سراح ابنائهن... وربما غالين أحيانا فادعين أن بعض أمهات الموقوفين قد رفعن أحذيتهن بوجه القائم مقام، كما كانوا يسمعون الكثير عن أسماء كبيرة كانت تحرك الشارع النجفي مثل الشيخ أحمد الجزائري وابراهيم الفاضلي وأحمد الحبوبي...وغيرهم من قادة حزب الاستقلال الذي كان نفوذه كبيرا في الأوساط الشعبية.



بعد أيام قليلة اتسع أفق تطلعه فصار يغادر ذلك الزقاق كل صباح ليخرج إلى عقد آل كاشف الغطاء ويشتري الحامض حلو من دكان رجب، ثم يواصل سيره عبر منطقة القباب الزرق، حتى يدخل الدار المجاورة لمسجد الجواهري، كانت تلك مدرسته الأولى، مدرسة الصادق: دار عادية من طابقين ونيم كار وسراديب، كانت في الطابق الأرضي غرفتان للدراسة ثم صارتا ثلاثا في السنة الأخيرة، وفوقها ثلاث غرف أخرى، أما الإدارة فتشغل النيم كار الذي يتوسط الطابقين، كان مديرها صدر الدين أحمد نموذجا للسلطة الصارمة، في ساعة الاصطفاف الصباحي يقف على الشرفة

الخارجة من طرمة الإدارة، فيصير كل من في الساحة تحت أنظاره، ويحل على التلاميذ صمت رهيب، ثم ينادي بهدوء على المذنبين، ويبقيهم في الانتظار، حتى يدخل بقية الطلاب إلى صفوفهم، عندها يبدأ بمعاقبتهم، ومن الصفوف كانت تسمع توسلاتهم وتوجعهم، وربما أحس الفتى بلسعة العصا كلما هوت على أكفهم الرقيقة، كانت عصا صدر الدين أحمد خيزرانة رشيقة كقامة صاحبها لكنها صلبة وموجعة، على العكس من عصا معاونه محسن الكيشوان كانت غليظة خشنة وكان يلوح بها أكثر مما يضرب، في اليوم الذي يصير فيه مراقبا للساحة، ما أن يسمع جرس الدرس حتى يبدأ التلويح بتلك العصا، ويأخذ الطلبة بالركض إلى الصفوف، فيزدحمون على الدرج وتبدأ بينهم معركة عنيفة من أجل الوصول إلى الصفوف، فيحظى المتأخرون بنقرات من تلك العصا على رؤوسهم، لقد قضوا مع الأستاذ محسن الكيشوان خمس سنوات دون أن يتذكروا أنه تبسم مرة واحدة، خلافا للأستاذ صدر الدين أحمد الذي كان يرسم أحيانا ابتسامة عريضة حينما يتحدث مع الطلبة الشاطرين تشعرهم بعطفه الأبوي، ومن المعلمين الآخرين ترد على ذاكرة الفتى صورة الأستاذ باقر الشيخ راضي مرشدهم لثلاث سنوات، كانوا يحسون دائما بانتمائهم إليه، ويشعرون بالرعاية الأبوية التي يمحضهم إياها، لقد ظلت الصورة المشرقة للأستاذ باقر الشيخ راضي مرسومة في أذهانهم زمن طويلا امتدت حتى وفاته،يتذكر الفتى آخر مرة رآه فيها كان وقتها على مشارف الستين من العمر، يوم رآه يجلس أمام دكان في شارع السور وقد بلغ من

الكبر عتيا، فاعترته رغبة عارمة في التوجه إلى تحيته وتذكيره بالأيام الغابرة، لكن صديقه عبد الرزاق الأميري سخر منه سخرية لاذعة قائلا أن الأستاذ باقر لن يتذكر شيئا من ذلك، وأن الكلام معه لا يحمل أي معنى، بعد ذلك بأسبوعين فقط وصل نبأ وفاة الأستاذ باقر الشيخ راضي وصارت فكرة أقامة الحوار معه أمنية مستحيلة.

ومن المعلمين الآخرين الذين شغلوا حيزا في ذاكرة الصبي الشيخ جعفر الكرباسي بعمامته الأنيقة وجبته العريضة ولحيته السوداء التي يمتنع عن حلاقتها مهما كلف الأمر لأنه الابن البكر للعلامة الشيخ ابراهيم الكرباسي، وكذلك الحاج جعفر الطريحي ذو السدارة السوداء التي ضل يلبسها حتى وافاه الأجل رغم أن ارتداءها قد بطل منذ عشرات السنين.

ويبقى الأستاذ باقر الشيخ راضي الأقرب إلى قلوب الطلبة بلا منازع، يتذكرون منه ذلك اليوم الخالد، يوم داهم المدرسة حشد من المتظاهرين فبادر فراش المدرسة عمو علوان إلى إغلاقها، لكن المتظاهرين سعوا إلى كسرها، فما كان من الأستاذ باقر إلا أن يزجرهم بشدة رغم أنهم حشود كبيرة، وحين افلحوا في كسر الباب واقتحام المدرسة ترك الأستاذ باقر النافذة المطلة على الزقاق وتوجه إلى الساحة، وقبل ذلك أمر الطلبة بالهدوء والتحلي بالشجاعة، كان ذلك أول مشهد للفوضى يعيشه الفتى داخل المدرسة كان التلاميذ يتقافزون بأحذيتهم فوق الرحلات أمام أنظار معلمهم غير آبهين بتوجيهاته، بينما أنهار بعض الطلبة وأجهشوا في البكاء، كانت تلك أول مظاهرة حقيقة يواجهونها، أما في الساحة

الصغيرة فقد كان المتظاهرون يرددون هتافات تندد بالحكومة من بينها " نوري المجرم هرّب نفطه لأسرائيل" و"الحكم الفاسد ما نريدة" وقد أغلق المعلمون أبواب الصفوف الثلاثة في الطابق الأسفل ليمنعوا دخول المتظاهرين على الطلبة بينما هبط معلمهم باقر الشيخ راضي إلى الطابق الأرضي وتوجه إلى مطالبة المتظاهرين بمغادرة المدرسة حرصا على سلامة الطلبة، بينما بقي الأستاذ صدر الدين أحمد مسمرا في مكانه في الطرمة منذ دخول المتظاهرين إلى المدرسة حتى مغادرتها، لم يحرك ساكنا ولم ينطق ببنت شفة، هكذا كان الأستاذ باقر وحده يتحرك وسط المتظاهرين مطالبا إياهم بالانسحاب من المدرسة بهدوء.

لم يطل بقاء المتظاهرين في الساحة أكثر من خمس دقائق فقط لكنها كانت دقائق قاسية مرعبة، وفور مغادرة المتظاهرين اقتحم المدرسة سيل آخر أكبر من سيل المظاهرة الأولى كان حشدا نسويا من أمهات الطلاب، وكان الخوف الشديد باديا على وجوههن، وظللن لفترة أطول يتجولن داخل المدرسة ويصعدن إلى الطابق الأعلى ويدخلن الغرف المغلقة بحثا عن أطفالهن، غادر الأطفال المدرسة ولما يزل الخوف يهيمن عليهم، لكنهم بعد دقائق قليلة وجدوا أنفسهم يرددون سوية "الحكم الفاسد ما نريده"، وحين وصلوا إلى بيوتهم بدؤوا يروون لأهلهم تفاصيل المظاهرة التي اقتحمت المدرسة وربما أضافوا الكثير من الأحداث التي أخترعها خيالهم متباهين بما حدث، وكأنما هم الذين كانوا يقودون المظاهرة ويخططون لها.

في اليوم ذاته علموا أنّ ابن عم معلمهم الأستاذ باقر الشيخ راضي قد قتل صباح أمس ومعه شخص آخر، اسمه

احمد الدجيلي. كان الفتى عبد الحسين الشيخ راضي يتسلق السياج الخارجي لمتوسطة الخورنق بعد أن أغلق رجال الشرطة باب المدرسة ليمنعوا الطلبة من الخروج إلى الشارع، وقبل أن يهبط إلى الجهة الأخرى من السياج سددت الطلقة النارية إلى رأسه، فخر صريعا ومثله حصل للفتى أحمد الدجيلي في متوسطة السدير، كان يقف في مكان مرتفع ليلقي خطابه على جموع الطلبة داعيا إياهم إلى التظاهر بوصفه أحد كوادر حزب الاستقلال، حين سددت الرصاصات إلى صدره، هكذا فقد حزب الاستقلال اثنين من أعضائه في أصبوحة واحدة، وكان أحد القتيلين سبط المرجع الكبير السيد حسين الحمامي الأمر الذي أثار غضبا عارما في الشارع النجفي فعطلت المدارس واندلعت التظاهرات بشكل يومي.

وخارج المدرسة كان اسم جمال عبد الناصر يتصاعد على ألسنة الشباب والشيوخ، وكانت دكاكين البقالين تفتح أجهزة الراديو على أقصاها على إذاعة صوت العرب، وخاصة حين يلقي جمال عبد الناصر خطبه منددا بالاستعمار البريطاني وعملائه في كل مكان، وحين تبدأ التعليقات على الأخبار بمهاجمة الحكومة العراقية، والتنديد بتحالفها مع الإنجليز.

كانت قرائح الشعراء تتقد، وتصدح حناجرهم بأجمل القصائد مع إعلان العدوان الثلاثي على مصر وكان المتظاهرون يتغنون بقصائد اليعقوبي والفرطوسي والصغير علي، وجمعية الرابطة الأدبية تسعى إلى الربط الموضوعي بين العروبة والإسلام، والتظاهرات تنطلق كل يوم، ذلك هو حال الشارع النجفي عام 1956.

في مساء اليوم الثاني لوقوع المظاهرة التي هاجمت مدرسة الصادق، كان الفتى يصغي إلى أحاديث أصدقاء والده وهم يسمرون في أحدى غرف الدار، وقد روى أحدهم جانبا من وقائع المظاهرة التي انطلقت صباح ذلك اليوم من ساحة الميدان إلى السوق الكبير، وعند ملتقى السوق الكبير بسوق القصابين، وقعت المواجهة بين المتظاهرين وبين الشرطة، كان المتحدث يروي بحماس بالغ كيف أحاط الشرطة بكاظم الفرطوسي وكيف ضربوه بالعصي حتى سقط إلى الأرض ولكنه استطاع الإفلات من قبضتهم والانسلال إلى سوق المسابك والدخول في زحمة الناس، ربما كان في كلام المتحدث مبالغة واضحة إرضاء لصاحب الدار، في أثناء ذلك الحديث طرقت الباب، فتوجه الفتى إلى فتحها، وإذا به أمام الشيخ حميد الفرطوسي، ومعه شخص ملثم بكوفية ومتسربل بعباءة سوداء، توجه الشيخ حميد إلى مجلس الرجال مباشرة، بينما تريث الآخر حتى نزع عباءته ولثامه، ليكشف عن وجه كاظم الفرطوسي ذاته، وليرفع سبابته أمام فمه مشيرا إلى الفتى أن يلزم الصمت، ثم توجه إلى مجلس النساء، هناك استقبلته الأم والجدة باستغراب شديد، فهو لم يعتد الحضور إلى تلك الدار.

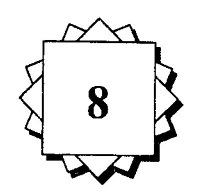
وفور جلوسه وضع جهاز الراديو الكهربائي على الأرض وتوجه إلى ربطه بالكهرباء، لكن علامات التوجع قد بدت واضحة على وجهه، رغم محاولته إخفاءها، جلس إلى جوار الراديو وأخذ يصغي باهتمام إلى نشرة الأخبار من محطة صوت العرب، ثم اخذ يروي إلى الأم والجدة خبر المظاهرة التي حصلت صباح اليوم والصدام الذي حصل بين

المتظاهرين ورجال الشرطة، ثم سحب دشداشته إلى الأعلى، وكشف عن ركبته التي كانت محاطة ببقعة داكنة من الدم المتخثر، لم تستطع جدته احتمال الموقف فصرخت بصوت عال، أشار لها كاظم أن تسكت بوضع سبابته على فمه، لئلا يسمعها الضيوف، ثم أكمل رواية أحداث الصدام مع الشرطة، وبين لهما كيف أنه مطلوب القبض علية من قبلهم.

ظلت المظاهرات والصدامات مع الشرطة تتكرر كل يوم، ولما تصاعد الموقف لدرجة أكبر من قدرة الشرطة المحلية، صدرت الأوامر إلى الجيش بإطلاق النار على المتظاهرين، لكن المتظاهرين شهدوا العقيد عبد الوهاب الشواف آمر حامية النجف يصفق لهم بحرارة، وهم يهتفون بسقوط نوري السعيد وحياة جمال عبد الناصر، هكذا لم ينفذ قرار الحكومة بالاستعانة بالجيش، عند ذاك لجأت الحكومة إلى الاستعانة بفوج القوة السيارة، وقد غلب على أفراده العناصر غير المسلمة. وظل رجال الشرطة يترصدون الطلبة من القوميين والشيوعيين وظل المطلوبون يراوغون السلطة، ثم يسقطون تباعا في قبضتهم، هكذا قرر البعض مغادرة المدينة إلى أماكن بعيدة وكان على كاظم الفرطوسي أن يرحل مع الذين رحلوا فوقع الاختيار على الشيخ أحمد الفرطوسي أن يهربه في زي فلاح عماري إلى مدينة العمارة ومن هناك يتجه إلى هور الصحين موطن أهله وعشيرته.

وفي احد الأيام انطلقت تظاهرة كبيرة عند دورة الصحن، كان من بين المشاركين فيها حسين كمونة وجواد الغراوي وعبد الإله النصراوي وسمير الحلو وأمير الحلو وعباس

الجابري وكاظم كلو وعلي منصور وعلي كمونة وعزيز الشيخ راضي ومحمد الحبوبي وفاضل مرضي ومفيد الجابري ومعين الجابري وفاهم العامري وعلي الغراوي وخضر الساعدي وعبد الأمير الطرفي وجودي الساعدي وأموري مديد وحاتم سعد راضي وفلاح كمونة وعبد الرزاق الحلي ومكي العكايشي وعبد الزهرة الخافوري، . . . وغيرهم، لقد وقع الاشتباك بين هؤلاء وقوات الشرطة وكان التشابك بالهراوات أولا فلجأ المتظاهرون إلى الاحتماء بالصحن الحيدري، فما كان من رجال القوة السيارة إلا أن يطلقوا النار على الصحن الحيدري الشريف ويصيبوه بأضرار، حيث تعرضت القبة وباب الصحن من جهة شارع الطوسي إلى خدوش، وكان رد فعل الرأي العام شديدا وقد بعث كافة المراجع برسائل احتجاج إلى الملك.. عبروا فيها عن غضبهم إزاء تلك الأحداث، بعد ذالك بادرت الحكومة إلى إرسال وفد رفيع إلى الحوزة العلمية ضم عددا من الوزراء من بينهم عبد الوهاب مرجان وعبد الهادي الجلبي وقد توصلوا إلى اتفاق يتضمن إصدار عفو عام عن المعتقلين والهاربين، وإبطال العقوبات التي صدرت بحق المحكومين ونقل رجال الشرطة الذين تسببوا بالقتل. . . هكذا طويت تلك الصفحة، وعادت الحياة إلى طبيعتها.



بعد تسعة أشهر من تلك الأحداث قيضّ للفتى أن يزور إيران برفقة أبيه، الذي كان روزخونا، يقضي شهري محرم وصفر في قرية صغيرة من قرى الأهواز في إيران تدعى المنصورة، هناك يحس انه جاب العالم بأكمله حتى دخله من ضفته الأخرى، فبمجرد أن يعبر شط العرب ويدخل عبادان يشعر بغربة مطلقة، اللسان والأزياء وألوان الطعام ومعالم الحضارة وتصرفات الناس. . . تشعره بعالم غير مألوف، كل شيء جديد عليه ويدرك انه دخل أرض العجم، وفي اليوم الثاني تترسخ عنده هذه الفكرة، فيشعر بسعة العالم وبعده الكبير عن عالمه الأول حتى إذا حل عليه صباح يومه الثالث، وركب البيكاب الحمراء، وسارت به نحو المنصورة عاوده الشعور بالألفة، وما هي إلا ساعة او ساعتان، وتقف البيكب الحمراء وسط قرية المنصورة، ويتجمع الأطفال حولها، يتناولون الأمتعة لنقلها إلى دار الحاج عبد الكريم الذي يقيم عنده هو ووالده لشهر كامل. هناك اكتسب الفتى معلومة جديدة، عرف أسما لفرقة دينية لم يسمع بها سابقا، الأخبارية، كان الفتى يصغي لأبيه، وينتبه بدقة للعلامات التي ترتسم على وجهه في مختلف الأحوال، حين يغضب وحين يحزن وحين يعتريه القلق، لم يكن لتلك الفرقة أن تترك آثارها

على ذاكرة الفتى، لولا إحساسه بخطر مبهم يهدد أباه، لذلك فقد ظل يمعن النظر إلى أبيه وهو يتحدث في ذلك الموضوع ثم ازدادت عنده عادة الانتباه الدقيق لأحاديث أبيه لتشمل كل الموضوعات، وجوهر الموضوع أن مؤامرة دبرت لسحب البساط من تحت أقدام الأب، بعدما أستطاع أن يثبت أقدامه في تلك القرية ويجد من يقف إلى جانبه من المريدين والأنصار، وخلاصة الأمر، أن شخصا مجهولا جاء إلى القرية في غياب والده مدعيا أنه أخوه، فاستقبله أهل القرية بالحفاوة والإكرام، وبعد ثلاثة أيام أخبرهم أنه هو وأخوه من أتباع الفرقة الأخبارية، وأن عشيرته بأكملها يتبعون تلك الفرقة، فانفض الناس عنه وأضمر بعضهم الشر للرجل وأخيه، بينما سعى آخرون إلى التثبت من الأمر، فتحروا الدقة في جمع المعلومات، من أجل معرفة الرجل الذي فتحوا له أبوابهم لسنين عديدة، فكان يقضي معهم شهري رمضان ومحرم ويحظى بكرمهم وسخائهم، فكثر سؤالهم عنه، حتى توصلوا إلى نتيجة فحواها بطلان التهمة المنسوبة إليه، ورغم مرور عدة أشهر على الحادث فقد ظلت صورة الرجل الأخباري مرسومة على ملامح الأب عند بعض الناس الذين ظل يراودهم الشك من صحة المعلومات الواردة إليهم. وظل الأب يسعى بمناسبة أو دون مناسبة إلى تفنيد التهمة المنسوبة إليه وتأكيد بطلانها وبراءته منها.

ولعل الجذور الأولى لنشوء الخلاف بين الأخبارية والأصولية هي ذات المشكلة التي نشأت بين السنة وأهل الرأي في الأيام الأولى التي رافقت نشوء المذاهب

الإسلامية، وربما كان الخلاف بين الأصولية والأخبارية في بداية أمره أخف بكثير من الخلاف بين مذهبي مالك وأبي حنيفة النعمان، قد نستطيع القول أن ذلك الخلاف كان موضوعا منهجيا قبل أن تدخله السياسة وألاعيبها.

تشير المصادر الأولى إلى أنّ بدايات الخلاف بين الأصولية والأخبارية بدأت مع ظهور الفكر المعتزلي وتأثر الشيعة بمنهج الاعتزال، حيث كان الشيعة في البدء متشددين في رواية الحديث، وخير مثال على ذلك كتاب الكافي للكليني وما لا يحضره الفقيه للصدوق، ثم جاءت مدرسة بغداد وحل التأثر بالاعتزال فكانت أفكار الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي كبدايات أولى لنشوء الفكر الأصولي، ولعل أول من تعرض للانتقاد من قبل أتباع المدرسة الأخبارية هو العلامة ابن الجنيد الذي كان أستاذا للمفيد والمرتضى، وقد وصفه الطرف الآخر بالتأثر بأصحاب القياس من أهل السنة، لكن النقلة النوعية حصلت مع صدور كتاب المحقق الحلي الموسوم بـ "معارج الأصول" وفيه توصل إلى ضرورة الاجتهاد، فنرسخ الخلاف بين الفريقين.

مما يجدر الانتباه إليه أن أحداثا مهمة حصلت في الرقعة الإسلامية كان لها أثرها الفاعل في تأجيج جملة صراعات في المنطقة من بينها الصراع الأصولي الأخباري، ولعل الحدث الجوهري ما حصل عام 922 هـ حين احتل السلطان سليم الثاني حلب وبلاد الشام وكان فيها المتوكل آخر خلفاء بني العباس حيث تنازل عن الخلافة للسلطان التركي سليم الثاني، ولكن مشكلة فقهية كانت تواجه انتقال الخلافة، حيث يشترط

بحسب أغلب المذاهب الإسلامية أن يكون الخليفة قرشيا، باستثناء المذهب الحنفي الذي يجيز للمرء أن يكون خليفة حتى لو كان عبدا حبشيا، فكان أن اعتنق العثمانيون المذهب الحنفي مذهبا رسميا للبلاد، وسعوا بكل قدراتهم إلى نشره والترويج له في كل أنحاء المملكة.

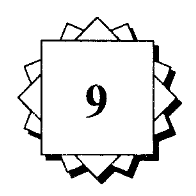
أما المغول فبعد أن كانوا يعتنقون المذاهب السنية أسقط ما بأيديهم فسعوا إلى أيجاد مخرج لهم، فوجدوا ذلك باعتناق المذهب الجعفري الاثني عشري، بعد إجراء تعديلات عليه تتلخص بإرساء مبدأ التقليد، حيث يكون كل مسلم ملزم بتقليد الأعلم ما لم يكن مجتهدا أو محتاطا، ولما كان المجتهد هو نائب الأمام الثاني عشر، فهو الذي يجيز تنصيب الحاكم ويمنحه الشرعية بالحكم.

لقد زار العلامة الحلي إيران وبتلك الزيارة حقق منجزا كبيرا للمذهب الجعفري الاثني عشري، حيث أعلن الشاه خدا بندا اعتناقه للمذهب الجعفري وأصدر مرسوما يقضي بأن يعتنق الشعب الإيراني بأجمعه هذا المذهب، هكذا صار المذهب الجعفري وفق مفاهيم الفرقة الأصولية المذهب الرسمي للبلاد، لكن الفرقة الأخبارية ظلت قائمة نشطة لقرون لاحقة، وظل الصراع بينها وبين الأصولية في تصاعد مستمر يوما بعد يوم كان يخرج من حدوده العلمية، ويدخل في إطار الشتائم الرخيصة،ومع بدايات القرن التاسع عشر برزت شخصيتان متصارعتان هما الشيخ جعفر كاشف الغطاء والسيد محمد الأخباري، فقد ألف الأول كتابا بعنوان: "الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الأخباريين" وكان

كتاب الثاني بعنوان: "الصيحة بالحق على من ألحد وتزندق" وألف الشيخ جعفر كتابا آخر بعنوان: "كاشف الغطاء عن معايب المرزا محمد الأخباري عدو العلماء" لقد تتوج ذلك الصراع بالهجوم على الميرزا محمد الأخباري وقتله هو وولده الأكبر في مدينة الكاظمية ومعهما خمسة عشر من تلامذة الميرزا الأخباري، منذ ذلك اليوم والحركة الأخبارية في ضمور وتراجع والأصوليون في مد واتساع.

لقد لجأ الميرزا علي نجل الميرزا محمد الأخباري إلى آل إغريق في الجبايش واستقر عند الشيخ مسلم الخزاعي وتزوج ابنته متخفيا تحت العمامة البيضاء، وقد جمع حوله عددا من الأنصار ثم هاجر إلى قرية بالقرب من سوق الشيوخ تسمى قرية المؤمنين واستقر فيها والتفت حوله عدد من العشائر ثم سافر إلى المحمرة، وأقام فيها وبنى له جامعا ونشر مذهبه هناك، وبعد وفاته صار قبره مزارا، أما قرية المؤمنين، فقد توجه إليها حفيده الميرزا عناية الله وأسس فيها مدرسة تضم طلبة من مختلف أنحاء العراق، وقد بنى لهم فيها أقساما داخلية وبذلك استطاع ان ينشر مذهبه رغم الظروف الصعبة المحيطة به، فاستجابت لدعوته، عشائر خاقان وآل جويبر والكثير من العشائر المحيطة بالمنطقة.





يوم أكمل الراوي سنته الحادية عشرة كان بصحبة أمه في محلة الشاكرية المجاورة إلى كرادة مريم والمكونة من صرائف القصب، كل سكانها قادمون من أهوار العمارة، هاربون من طغيان الإقطاعيين، وكان لزاما أن يغادر كل صباح تلك الدار الضيقة المبنية من أعواد القصب والبردي ذات السقف المطأطئ والباب الخشبية المليئة بالمسامير الضخمة، ليسير في شبكة من الدروب الضيقة الملتوية كأذرع أخطبوط، وكان لزاما عليه أن يقطع برفقة أمه المسافة الممتدة بين الشاكرية وباب المعظم عبر الباص الطويلة الحمراء ذات الطابقين، وكان عليهما أن يبقيا عند الباب الخارجية للمستشفى حتى الثانية بعد الظهر ليتسنى لهما اللقاء بوالده الراقد في مستشفى المجيدية، وكان عليه ان يتأمل في الذهاب وفي الإياب كافة المعالم التي تواجهه على الطريق، وكان يستوقفه كل يوم معلمان مهمان على طرفي الجسر الذي يعبره ذلك الباص: حصانان نحاسيان كبيران يحملان رجلين في أهبة الاستعداد، الأول بعقال وكوفية عربية، يقف على جهة الكرخ ذلك هو الملك فيصل الأول، والآخر يقابله على جهة الرصافة بزي عسكري يعتمر خوذة حربية ذلك هو الجنرال مود الفاتح الأنجليزي للعراق عام 1914، وكان الفتى يتساءل كلما مر على التمثالين الواقفين في مكانيهما لا يبرحانهما أبدا، من هو

صاحب السلطة الأكبر بينهما، من هو الآمر ومن المأمور، وحين مر عليهما في اليوم الخامس عشر من تموز لم يجد التمثالين في مكانيهما، لقد أدرك ببساطة أن جماهير الناس قد سحبت التمثالين بالحبال، كما سحبت جثة الوصي عبد الإله في شوارع الكرخ، وجعلت لحمه يتناثر في الطرقات، وعصر اليوم الثاني وصله نبأ مقتل نوري السعيد وسحبه بالحبال وهو يرتدي عباءة امرأة، وسرعان ما انتشرت بين الفتية والأطفال أهزوجة:

«عقب ما كان نوري صار نورية»

وحين عاد بعد أيام قليلة إلى النجف وجد الناس يرددون "عقب ما كان نوري صار نورية"، ومعها أناشيد كثيرة تترنم بالحبال ودورها في نصرة النظام الجمهوري.

مع الأيام الأولى لعودته أحس بالانقسام واضحا بين فريقين: قوميين وشيوعيين الفريق الأول ينادي بالوحدة العربية الفورية بقيادة جمال عبد الناصر، والثاني يردد شعار:

«اتحاد فدرالي صداقة سوفيتية».

في تلك الأيام أحس أبوه بالحاجة الماسة إلى شراء جهاز الراديو، ولكن التحريم الاجتماعي يقف أمامه عائقا، وذات صباح فوجئ بأبيه عند عودته من السوق يحمل تحت عباءته جهاز راديو كهربائي، ولكن المشكلة كانت في كيفية إخفاء الهوائي الذي ينبغي أن يعلق على سطح الدار، ثم يهبط منه سلك طويل يتصل بالجهاز، وفي النهاية استطاع أبوه أن يجعل الهوائي على شكل حبل لغسيل الملابس وجعل السلك

المتدلي ضمن مجموعة من الحبال والأسلاك وحفظ جهاز الراديو في دولاب صغير واقفل عليه وكان يفتحه إذا حضر ويغلق الدولاب إذا غادر الدار، بهذه الطريقة أستطاع أن يسكت ألسنة الناس، وأن يتواصل مع العالم المحيط به وأن يشنف أسماعه أحيانا بأغنية جميلة مثل عليمن يا قلب لوحيدة خليل أو يا عنيد يبابه لحضيري أبو عزيز، ولكن الإصغاء لمثل تلك الأغاني يكلف الفتى عناء الوقوف عند الباب، والتأكد من أن صوت الأغنية لا يسمع هناك، وبعد شهرين من شراء الراديو اكتشف الأهل أن صوته كان مسموعا بوضوح لدى الجيران من خلال جدار التيغة بوش الذي يفصل بين الدارين.



كان الشيخ محمد الشبيبي جليس داره، في محلة العمارة لا يغادرها إلا في النادر، وكان منذ أن نفذ حكم الإعدام بولده حسين، يستقبل عددا قليلا من المعممين كانوا يزورونه بصورة سرية، وما أن يعرف أحدهم بأنه من جماعة الشبيبي، حتى يقطع راتبه، لقد ظلت تلك المجموعة ضئيلة العدد، حتى قيام ثورة 14 تموز، عندها اتسعت بشكل مباشر، لتشكل تيارا متميزا داخل الوسط الديني، يطلق عليه جماعة العلماء الأحرار، وقد حضي الشيخ بمكانة محترمة في المجتمع النجفي فكان مجلس السواق الذي يقرأ فيه الشيخ المجلس الأكبر من بين مجالس التعزية الحسينية، وكان كثير التطرق إلى القضايا المعاصرة، حيث يبشر بالأفكار اليسارية، ويندد بالسياسات الاستعمارية التي تمارسها الدول الكبرى،

وبعد الانتهاء من مراسيم وفاة النبي أغمض الشيخ محمد الشبيبي جفنيه مودعا الدنيا إلى الأبد، وقد كان يوم وفاته يوما حافلا حيث أغلق الكسبة والميكانيكيون والحرفيون أبواب محلاتهم وأسهموا بتشيع مهيب، ظلت ذكراه راسخة في ذاكرة النجفيين لسنين طويلة.



هوب... هوب... عفلق
فداك الطسة
بيها جمال ينوص
ما ينسمع حسه...

كان على المرجع الكبير أن يسمع هذه الأهزوجة كلما خرج أو دخل إلى داره، تردد ملحنة من قبل المزين وجاره بائع اللبن، اللذين حطت عليهما الثورية دفعة واحدة بعد قيام ثورة 14 تموز، فكانا من المتحمسين جدا إلى الاتحاد الفدرالي والصداقة السوفيتية، ويريان كل من لا يؤمن بهما هو عفلقي متآمر على الجمهورية يستحق الإعدام سحلا بالحبال، وينطلق لساناهما في أثره مرددين:

«والما يصفق عفلقي
والحبال موجودة»

لقد تصاعد سلوكهما الثوري خلال تسعة أشهر. فقد ابتدأ مع الرابع عشر من تموز حييا، فساهما في التظاهرة التي

انطلقت تأييدا للثورة، ثم ازداد حماسهما يوم مجيء العقيد عبد السلام عارف إلى النجف، وقد قطعا شوطا كبيرا في الثورية ليلة وفاة النبي التي حشد لها الفدراليون كل جهودهم على مستوى العراق بأكمله، فكانت المواكب تأتي من البصرة والعمارة والناصرية ومختلف المدن العراقية، حاملة صورا كبيرة للزعيم عبد الكريم قاسم ومرددة الأهازيج الداعية إلى الاتحاد الفدرالي والصداقة السوفيتية، بينما تجمع القوميون أمام مكتب المحامي أحمد الحبوبي على جبل المشراق، تتصدر موكبهم ثلاث صور: الأولى للإمام علي والثانية لجمال عبد الناصر والثالثة لعبد السلام عارف، ويبدو ان الصور الثلاث قد استفزت الفدراليين وأغراهم قلة عدد خصومهم، فبادروا إلى مهاجمتهم بعنف شديد، والاشتباك معهم بالأيدي والعصي والقامات.

تلك كانت أول مواجهة بين القوميين والشيوعيين، تدخل على أثرها رجال الشرطة فاعتقلوا أعدادا كبيرة من الطرفين، ونقلوا إلى بغداد في اليوم ذاته، ليمثلوا أمام مجلس عرفي يرأسه شمس الدين عبد الله.

لكن المزين وصاحبه بائع اللبن لم يكونا من بين المعتقلين ولا من بين الجرحى الذين نقلوا إلى المستشفى، لقد وجدهما الناس في اليوم الثاني بدكانيهما بحنجرتين مبحوحتين، بحيث أنهما لا يستطيعان الكلام، كانت أحداث ليلة وفاة النبي الجرعة الثورية الثانية، فعلى أثرها صبغ بائع اللبن أوانيه بالبوية الحمراء، بينما علق المزين في دكانه صورة كبيرة لكارل ماركس وإلى جانبها علق خرقة حمراء عليها شعار

المنجل والمطرقة، وأضافا إلى مجموعة الأهازيج التي يرددانها يوميا أهزوجة جديدة هي:

«بيه منجل وجاكوج

أحمر علمنا».

بعد أيام قليلة من ذكرى وفاة النبي، أعلنت الإذاعة نبأ إعفاء العقيد الركن عبد السلام عارف من جميع مناصبه، وتعيينه سفيرا للعراق في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وبعد أيام أخرى أعلن نبأ اعتقاله وإيداعه السجن بتهمة التآمر على الزعيم، بهذا الخبر بلغ المزين وبائع اللبن أقصى درجات الثورية، فملآ سوق العمارة هتافا:

عبد السلام الواوي

ويحاكمه المهداوي

وصار نشيدهما المفضل:

«عاش زعيمي

عبد الكريمي

الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي»



في الساعة الرابعة من عصر الثامن من آذار، سمع الناس بيانا من الإذاعة يعلن عن إعفاء العقيد عبد الوهاب الشواف آمر حامية الموصل من كل مسؤولياته وإحالته على التقاعد،

بينما أعلنت إذاعة صوت العرب عن قيام ثورة في مدينة الموصل وبدأت ببث الأناشيد الحماسية، وفي الوقت نفسه أعلنت إذاعة جديدة بيان الثورة من مدينة الموصل. . .

عندها حل على المدينة هدوء وترقب غير اعتياديين، انشد الناس إلى أجهزة الراديو وفي اليوم الثاني جرى الإعلان عن مقتل عبد الوهاب الشواف وفشل الثورة، في ذلك اليوم انطلقت مظاهرة كبيرة تردد: "زعيمنا الأوحد عبد الكريم قاسم" وتدعو إلى إشراك الحزب الشيوعي بالحكم، لتحمي الثورة من مؤامرات القوميين والبعثيين وأذناب جمال عبد الناصر. . .

بعد انتهاء المظاهرة عاد المزين وبائع اللبن إلى سوق العمارة يملؤهما حماس كبير، وهما يترنمان بالأهازيج، ويتوعدان كل من يصادفهما بالسحل بالحبال.



اعتاد معاون الشرطة محمد كشمولة ان يمر على سوق العمارة بعد أذان المغرب كل مساء ليشتري الفاكهة، لكنه هذه المرة توقف أمام دكان المزين وأطال النظر إلى صورة كارل ماركس، ثم رمق المزين بطرف عينه وسأله:

- المرحوم. . . شيعود لك؟؟؟؟

لم يجد المزين الجواب المناسب فأطرق إلى الأرض، حتى إذا اجتازه معاون الشرطة بادر إلى نزع الصورة ورميها إلى كنجينة مظلمة، لكن صاحبه بائع اللبن سجل احتجاجه الشديد على تخاذل المزين، لم يأبه المزين لاحتجاج صاحبه، لأنه يعلم جيدا أنّ الزعيم عبد الكريم قاسم غير سياسته تجاه

الشيوعيين، منذ أن ألقى خطابه في كنيسة القديس مار يوسف وقد وصف الشيوعيين بالفوضويين وندد بمواقفهم، ومما قاله أنا قومي عربي سأحمي القومية العربية، هكذا سكت المزين سكتته الأبدية وانصرف إلى شؤونه الخاصة، بينما ظل صاحبه بائع اللبن على سلوكه القديم لأيام أخرى، رغم أنه رأى القوميين يخطون على جدران الأزقة شعارات تشيد بموقف الزعيم من القومية العربية، وحين أحس بانقطاع حبال الوصل بينه وبين جاره المزين، صار يقضي بعض أوقاته في حسينية خليل الأعمى في محلة المشراق، وكان جماعته الفدراليون قد اتخذوا منها ملتقى لهم، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى اقبل عليها معاون الشرطة محمد كشمولة، هاتفا بصوت عال:

- ويلكم.. ماذا تفعلون هنا.. أتحوكون المؤامرات؟؟؟

ثم انهال وشرطته بالضرب على بعض الجالسين، وكان نصيب بائع اللبن كبيرا من ذلك الضرب، وقد استطاع أن يشخص عددا من الشيوعيين البارزين وهم يضربون بشدة على يد محمد كشموله وشرطته. كما ميّز بعض القوميين الذين وقفوا متشفين بباب الحسينية ينظرون إلى الشيوعيين وهم يتعرضون إلى الضرب والإهانة، لم يكن أمامه إلا أن يطلق ساقيه للريح ليفلت من قبضة بن كشمولة، وهو يصيح:

- عمي آنا رجال فقير... لا قومي ولا شيوعي... وكلشي ما افتهم بالسياسه.

في اليوم الثاني فتح بائع اللبن دكانه بوجه متورم، وما هي إلا دقائق حتى أقبل عليه صاحبه المزين بين مواس له وشامت به، وحكى له الحكاية التي ظلت طيلة الليل لغزا محيرا له،

قال له المزين أن محمد كشموله قد عمل بهم ذلك بتحريض من القوميين الذين دلوه على تلك الحسينية، وأخبروه بأنها وكر للشيوعيين، كما أخبره أن كشمولة هو أصلا من أسرة قومية معروفة لدى الموصليين جيدا، ونصحه بأن يكون مثله يأخذ طريقه ويأتي بطريقه.



على جدار الجهة اليمنى لباب الصحن المنفتح على سوق الحويش رأى الفتى بيانا ملصقا، ووجد ثلة من الرجال يقفون أمامه باهتمام، وقف معهم وأخذ يقرأ، كان البيان عبارة عن رسالة رفعها المرجع الكبير إلى الزعيم عبد الكريم قاسم، يبلغه فيها أن القانون الجديد الذي سن في عهد الزعيم والمسمى قانون الأحوال الشخصية هو قانون مخالف لتعاليم الدين الحنيف، الذي يؤكد أن حصة المرأة من ميراث الأب هي نصف حصة الرجل، ويستند إلى الآية الكريمة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النِّساء: 11]، أما القانون المذكور فقد ساوى بين المرأة والرجل في هذا الأمر.



أمام باب المدرسة رأى عددا من الطلبة يحتشدون حول جريدة بيد أحدهم، حين اقترب منهم تبين له أنّ على الصفحة الداخلية من جريدة الشرق خبرا صغيرا عن رسالة وجهها شخص ما إلى المرجع الكبير، كان يسأله، بصفته واحدا من مقلديه، عن الانتماء إلى الحزب الشيوعي، هل يجوز له ذلك، وقد جاء جواب المرجع الكبير على الصورة الآتية:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد وترويج إلى الكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين من ذلك".

لم تثر تلك العبارات اهتمامه، لكنه وجد بعد ثلاثة أيام على صفحات جريدة الحضارة صورتين كاريكاريتين: كانت إحداهما لرجل دين بعمامة سوداء يمد يده باستكانة أمام رجل على رأسه قبعة أخذت شكل العلم الأمريكي، وقد كتب تحت الصورة: " أعطونا الدولارات لنحمي الدين والعروبة"، وفي اليوم التالي، وهو في طريقه إلى المدرسة، رأى أرضية السوق الكبير وقد امتلأت بمئات الجرائد الممزقة، وقد استطاع أن يميز منها اتحاد الشعب والبلاد والحضارة والرأي العام، وهي مجمل الجرائد الشيوعية، لقد أدرك ببساطة أن القوميين قد هجموا على بائع الجرائد الشيوعية ومزقوا صحفه.

لقد صارت الأيام اللاحقة ساخنة لا تطاق، فقد شهد الناس أحد الشقاوات قبيل صلاة المغرب وبالصحن الحيدري يصفع الشيخ م. ز. وهو واحد من جماعة العلماء الأحرار، ويسقط عمامته أرضا، لم يتحرك احد من الواقفين، وظل الشيخ على وقفته حتى غادره الشقاوة، بعد سيل من الشتائم البذيئة، فمد يده وتناول عمامته واتجه إلى داره بصمت.

كما شوهد الشقاوة نفسه يستوقف العلامة القاييني في ذيل سوق العمارة وأمام دكاني المزين وبائع اللبن، ثم يمسك بطرف لحيته ويبصق عليها مرددا:

- قوّاد .. قاييني... صاير شيوعي، ألعن والديك...

وكان قد شاع في المدينة قبل ذلك، أن أحدهم وبعد أن ظهرت الفتوى وكثر الخوض بها، سأل القاييني عن جواز الانتماء إلى الحزب الشيوعي، فأجاب ان الشيوعية مذهب اقتصادي لا يتنافى وتعاليم الإسلام.

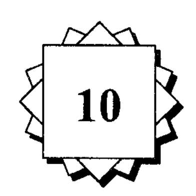


أخيرا وجد الشعار الذي أطلقه الشيوعيون أذنا صاغية لدى الزعيم عبد الكريم قاسم، فأصدر مرسوما جمهوريا بتعيين الدكتورة نزيهة الدليمي وزيرة للبلديات، هكذا اعتقد الشيوعيون أن الزعيم الأمين قد عاد إلى رشده وأن هيبتهم السابقة قد رجعت إليهم، فملأ الحماس نفوسهم، وانطلقت تظاهرة متواضعة من متوسطة الخورنق تردد:

«نزيهة صارت بالحكم موتوا يا بعثية»

لكن الناس لم تجد في ذلك الحدث الأمر المهم، فسرعان ما تبدد الشعار الجديد، وتحول إلى صور كاريكاتيرية، وإذا كان الوقد الثوري القديم قد اتقد في نفس المزين وبائع اللبن، وهما يسمعان ذلك الشعار، فراودتهما نفساهما إلى العودة إلى سلوكهما القديم، فهمّا بالمشاركة بتلك النشاطات الثورية، فإن انطفاء مباغتا حل عليهما، وهما يصغيان ذات صباح إلى مجموعة من طلبة متوسطة السدير كانت تمر أمام دكانيهما مرددة:

«نزيهة شخّة علجسر وتمزلك المهداوي»



تصبّ الطرق الثلاثة الآتية من كربلاء والحلة والديوانية في ساحة كبيرة يسمونها اليوم ساحة ثورة العشرين، تقع على مسافة فرسخ واحد شرق الصحن الحيدري الشريف، قبل نصف قرن تقريبا كانت تتوسط الساحة حديقة دائرية مزروعة بأشجار الآس وورود الدفلى، في وسطها نصب يقف عليه تمثال بقامة سامقة وابتسامة ودودة، ذلك هو تمثال الزعيم عبد الكريم قاسم، في الساعة العاشرة من صباح 8 شباط 1963، كان حشد من القادمين من ساحة الميدان يهوون بتمثال الزعيم إلى الأرض.

فالجماهير المنقسمة على نفسها لأربع سنوات خلت، قد تجسّد انقسامها بأجلى صوره صبيحة ذلك اليوم الأسود، فمع الدقائق الأولى التي أعقبت صدور البيان الأول للانقلاب، كانت حشود غفيرة تغادر بيوتها متجهة دون إيعاز مسبق إلى شارع الرسول، لتتجمع هناك في تظاهرة حاشدة مرددة "**انقلاب رجعي، واجب مقاومته**"، وحشود أخرى تتجمع في ساحة الميدان تهتف بسقوط عبد الكريم قاسم، جماعة منهم اتجهت صوب الشرق لتطيح بتمثال الزعيم، وقليل منهم غامروا بالاقتراب من شارع الرسول، فتصدّى لهم المتظاهرون.

تجاوز الوقت صلاة الظهر وتظاهرة شارع الرسول في

غليان متواصل، كان يقودها شيوعي متحمس اسمه محمد موسى التتنجي، هو أول من حضر إلى شارع الرسول صبيحة ذلك اليوم، وآخر من غادر، ثمّ ظلّ لأكثر من شهر يراوغ جماعات الحرس القومي متخفيا يتنقل من بيت إلى بيت، حتى ألقي القبض عليه في بيت متواضع في منطقة الجديدة الأولى، استؤجر بُعيد انقلاب 8 شباط لتشغله امرأة وأربعة رجال كان محمد موسى أحدهم، ويبدو أنْ ذلك البيت كان مقرا سريا للحزب الشيوعي، إذ أن شهود عيان رووا أنهم شهدوا جهازا طباعيا يغادر البيت المذكور قبل يوم واحد من إلقاء القبض على السيدة والرجال الأربعة، لكن أخبار صمود محمد موسى وصلابته كانت تصل إلى الشارع من أفراد الحرس القومي أنفسهم، وكان الخبر الأعظم،هو خبر موته تحت التعذيب.

في الوقت الذي كانت التظاهرات تملأ الشوارع كانت قيادة الحزب الشيوعي في النجف تجتمع وتتخذ قرارا بتشكيل وفد للاتصال بالإدارة وتحديد موقفها من الانقلاب، لكن تلك المهمة لم تنجز، ولم يجر أي اتصال بالمسؤولين، كما يقول الأستاذ داوود ملا سلمان (أبو داليا)، وهو واحد من الكوادر المهمة للحزب الشيوعي في النجف، وفي عصر اليوم ذاته انقطع الاتصال بين تشكيلات التنظيم، بينما بدأ أنصار الانقلاب بالتحرّك المنظم -والحرس القومي لمّا يتشكل بعد- فسعوا إلى القبض على أبي داليا، لكنه تخلص منهم... ثم سقط في قبضتهم في اليوم الثاني، ولغة الحوار، كما هو معروف، بالركلات والشتائم البذيئة... اقتادوه إلى مركز

الشرطة الذي اتخذ بناية خان الهنود في ساحة الميدان مقرا له، فوجد أمامه الكثير من الناس المستقلين والذين لا تربطهم بالسياسة أية رابطة، وجدهم معتقلين هناك، ربما لأن صلة صداقة كانت تربطهم ببعض السياسيين، وربما لضغينة كان يحملها أحد أفراد الحرس القومي عليهم، بعد أيام قليلة، وقد ضاقت مراكز توقيف النجف بالمعتقلين، جرى نقله مع الكثيرين إلى سجن الحلة المركزي، وهناك ولضيق المكان صارت زنزانات الإعدام مأوى لهم، بعد أكثر من ستة أسابيع أعيدوا إلى النجف، ليحقق معهم في مقر الحرس القومي، وهناك في سرداب في نقابة المعلمين، يجري التحقيق، والتحقيق يعني التجريد من الملابس والضرب بالسياط والعصي، هكذا ظل أبو داليا وجماعته ينقلون بين سجن الحلة والنجف حتى صدر حكم المجلس العرفي عليهم.

اتخذ الحرس القومي أربع مقرات له داخل مدينة النجف فقط، دون ضواحيها، هي: المكتبة العامة الواقعة في ساحة الميدان آنذاك ومدرسة الغري الأهلية المجاورة للمكتبة العامة ونادي الموظفين ومقر نقابة المعلمين الواقعين في شارع الخورنق، كانت هذه المقرات أماكن لإجراء التحقيق، أما مراكز الاعتقال فهي كثيرة تشمل كل مخافر الشرطة وكل السجون، أبرزها مركز شرطة النجف الذي اتخذ خان الهنود في ساحة الميدان مقرا له ومركز شرطة ناحية العباسية والسجن المركزي في الحلة.

التحقيق غالبا ما يجري في مقرات الحرس القومي، وطريقته المألوفة هي أن تكبّل اليدان إلى الخلف بالكلبشة،

وتشدّ العينان، ويملأ الفم بالقطن ويكمم، ثم يعلق المرء من يديه إلى المروحة، ورحمة من رجال الحرس القومي يتركون المروحة ساكنة.

أما السيد ع. م. (الذي فضّل عدم ذكر اسمه) فكانت من مشاهداته حين اقتادوه إلى التحقيق في مقر الحرس القومي في المكتبة العامة أنه رأى زهير شكر وقد تورم وجهه وجسمه من الضرب، بينما كان السيد جبار عبد نله لا يستطيع الجلوس الاعتيادي وكان يرتجف كالمقرور وقد ازرقّ وجهه، مما اضطر الجلادين إلى الاستعانة بطبيب لمعالجته.

ويواصل السيد ع. م. شهادته حين نقل إلى مركز شرطة العباسية مع مجموعة من رفاقه إذ وضعوا مع اللصوص والمجرمين العاديين، لكن هؤلاء المجرمين استقبلوا ضيوفهم بالاحترام الكبير، وغيروا الكثير من سلوكياتهم عند حضور المعتقلين السياسيين، ويضيف أنهم بقوا عدة أيام هادئي البال ومحترمين من قبل السجناء ورجال الشرطة معا، غير أن الأمر تبدل بوصول لجنة التحقيق المكونة من أفراد من الحرس القومي، يقول: لقد سلطوا علينا وابلا من الإهانات والتعذيب، وكانت أمهاتنا يتعرضن عند زيارتهن إيّانا إلى الإهانة والدفع والطرد... هنا بلغ الحزن مداه الأقصى على وجه محدّثي ع. م. فأحجم عن مواصلة حديثه.

كاظم معد الذبحاوي فلاح من ريف الكوفة، يكشف آثار التعذيب فتراها "مطرزة وموشومة بكل ما نقشته سياطهم وأعقاب السكائر وآثار الكلاليب والكي بالنار".

لكن ما ينبغي ألّا ننساه أن الجلادين كثيرا ما يحصلون

على براءات اختراع في فنون التعذيب، لذلك كان الذين ماتوا تحت سياطهم كثيرين، من بينهم: محمد موسى التتنجي ويعقوب يوسف الترك ومهدي عطية الطيار الملقب بمهدي بارودة وكاظم بلوش شريف، والسيدة رباب، وقد كانت شيوعية ورابطية جريئة.

لكن التعذيب الأبشع ما تعرض له الشاب علي حسين الصفار، ذو الواحد والعشرين ربيعا، الذي لم يعثر على جثته إلى اليوم، يحدثنا شقيقه عماد حسين الصفار عن قصة اعتقاله: يقول أن علي الصفار اختفى لعدة أيام في مدينة البصرة، ولما تأكد له أن داره لم تداهم من قبل الحرس القومي، وأن اسمه لم يرد في التحقيق عاد إلى حياته الاعتيادية في النجف، غير أنه اعتقل ذات صباح في حي السعد وهو ذاهب إلى دار ربّ عمله هناك، ولم يعد إلى يومنا هذا، إذ أصر على عدم الإدلاء بأية معلومات تخدم الجلّادين، وأصرّ جلّاده أن يدق مسمارا في صدره، وبعد أن فارق الحياة لف جثته أفراد الحرس القومي ببطانيته، ورموه في مكان مجهول ولم يعثر عليه إلى اليوم، وفي رواية أخرى أن جلاده كان قد وخز بطنه بقضيب حديدي، ولوى أمعاءه بوساطة ذلك القضيب حتى قضى نحبه، ولكن من أين لأخيه هذه المعلومات؟؟ يجيبنا السيد عماد الصفار أن الكثير من الذين كانوا معتقلين معه رووا هذه المعلومات، كما أن جلّاده نفسه كان يتحدث عنها بزهو كبير أيام الحرس القومي، ويضيف السيد عماد أن والديه قد رفعا شكوى بعد قيام انقلاب 18 تشرين الثاني، لكنهما لم يحصلا على نتيجة.

مع مجيء سلطة 8 شباط خصصت لجنة تحقيقية من الحرس القومي أقامت في إعدادية النجف للبنات، أجرت تحقيقا متواصلا مع أغلب طالبات المدرسة، وخارج المدرسة شملت الاعتقالات عددا كبيرا من النساء، تعرضن لصنوف مختلفة من التعذيب، من بينهن السيدة ن.د. التي أصيبت بخلل عصبي تحت تأثير بشاعة ما واجهت، ومن بينهن السيدة م. ح. التي ضعفت في لحظة من اللحظات، فأدلت بما لديها من معلومات، وتحت التعذيب البشع وافقت أن تدلّ الجلادين على بعض رفيقاتها، وتشخصهن لهم، هكذا اقتادوها إلى دار السيدة أ. د. في حي السعد، فلم يكن من الأخيرة إلّا أن تهرب إلى الدار المجاورة، حيث كانت جارتها نفساء، ولم يكن من أفراد الحرس القومي إلا أن يدخلوا الدار المجاورة، ليجدوا السيدة أ.د. ترقد في فراش السيدة النفساء، وتضع الوليد إلى جانبها، في تلك اللحظة عادت إلى السيدة م. ح. رباطة جأشها فنظرت إلى رفيقتها نظرة عميقة، ثم أنكرت معرفتها بها، فأنقذتها من السجن والتعذيب.

والسيدة رباب واحدة من بنات النجف اللواتي تعرضن للإرهاب والتعذيب الشديد، الذي أودى بها إلى الموت، بين أيدي جلادي الحرس القومي، وقد كانت شيوعية ورابطية ناشطة شمل نشاطها المحافظات المجاورة، بشهادة السيدة علية محمد هادي، فقد عرفتها من خلال زياراتها المتواصلة لشقيقتها الشهيدة أم سعد في عهد عبد الكريم قاسم، تقول السيدة علية: "كنت وقتها صغيرة، لكن ما أتذكره أن رابطيات كثيرات كنّ يأتين من بغداد والمحافظات الأخرى ليلتقين بأم سعد، من بينهن

السيدة رباب، وكانت شقيقتي أم سعد تحدثني كثيرا عن نشاط رباب في أرياف النجف، وغرضها من تلك الأحاديث تربتي على الشجاعة والخلق الثوري".

لكن محافظة النجف كانت ملجأ أمينا للسيدة فوزية محمد هادي (أم سعد) التي حماها ريف المشخاب من قبضة الحرس القومي، فكانت تتنقل بين بيوت الفلاحين مرتدية الشيلة والعصّابة، حتى لا ينكشف أمرها، بينما كان أفراد عائلتها في مدينة الديوانية - كما تروي شقيقتها علية محمد هادي - يتعرضون إلى الاضطهاد الشديد بسبب البحث عن أم سعد، وظلت قرى المشخاب مأوى أمينا لأم سعد حتى سقط نظام الحرس القومي في 18 تشرين، فعادت إلى دارها لتلاقي - بعد ثلاثة وعشرين عاما- مصيرها المحتوم، وهو الموت شنقا في 8/ 10/ 1986 على يد نظام صدام حسين.

مثلت منطقة شرقي الكوفة الممتدة من الضفة الشرقية لنهر الكوفة إلى ناحيتي الحرية والمهناوية ملجأ أمينا للهاربين من بطش الحرس القومي، هذا ما لمسناه من حادثة شهيرة وقعت في تموز 1963 على الضفاف الشرقية لنهر الكوفة، يقول الأستاذ داود ملا سلمان الذي كان معتقلا في مركز الشرطة في خان الهنود" أنه ورفاقه لاحظوا حالة غير طبيعية بين أفراد الشرطة والحرس القومي، ثم طلب من الدكتور رضا عجينة الذي كان معتقلا معهم الذهاب إلى المستشفى لإسعاف جريح، بعد ذلك تبين أن قوة من الحرس القومي توغلت في أحد البساتين الرابضة شرق الفرات، لتلقي القبض على مجموعة من المطلوبين من قبل النظام، ولم تدم المواجهة إلا

دقائق قليلة حتى سقط السيد عباس أبو اللول جريحا فكان رد فعل المحاصرين إطلاقة على آمر قوة الحرس القومي أردته قتيلا في الحال، لم يكن الغرض من استدعاء الطبيب هو إنقاذ حياة الجريح وإنما كان الهدف الحصول على المعلومات المطلوبة منه؛ لأن الجريح فارق الحياة في اليوم ذاته.

أما السيد حسين أبو خبط وهو فلاح من ريف المهناوية فيروي قصة مقاومة الحرس القومي في منطقته ابتداء من يوم 8 شباط، فبمجرد أن سمعوا بيان الانقلاب نزلوا إلى الريف ليهيئوا ما يتيسر لهم من الأسلحة، من المكوار إلى البندقية، ثم سيطروا على ناحية المهناوية وعزلوها عن مدينة الشامية، لكن رجال الشرطة والأمن توجهوا للاشتباك معهم، فوقعت المواجهة بين الطرفين على نهر صغير يقال له نهر عكر، صمد الفلاحون أمام قوات الشرطة والأمن لساعات ثم انسحبوا إلى الريف وتوزعوا هناك،ولما كانت المنطقة خالية من البعثيين والمتعاطفين معهم فقد صارت البيوت في تلك القرى - كما يروي حسين أبو خبط - مأوى للشيوعيين القادمين من المدن العراقية، فقد تخفّى هناك الكثيرون، ومن بينهم زكي خيري وباقر ابراهيم الموسوي وصالح الرازقي وحسين شعلان وحسين سلطان صبي، لم تحصل في تلك المنطقة خلال حكم الحرس القومي إلا مواجهة واحدة فتل فيها محمد الخضري.

ونظمت ذات يوم حملة باتجاه منطقة الطحينية باعتماد الزوارق البخارية، لكن مواجهة لم تحصل معهم لأن المقاومين قد راوغوا الحملة بالانسحاب الصامت، فلم

يحصل المهاجمون على أي شيء، يقول حسين أبو خبط: "هكذا بقي ضيوفنا سالمين طيلة حكم الحرس القومي ولم يلق القبض على أي منهم، كما صارت منطقتنا المركز الرئيس لنشاط الحزب الشيوعي"، ويضيف: "أنهم غادروا المنطقة إلى بغداد سالمين بعد قيام انقلاب 18 تشرين ليعيدوا بناء الحزب الشيوعي".



يحتّم الانقسام الحاصل في صفوف الحركة الوطنية بعد ثورة 14 تموز 1958، بين أنصار الوحدة الفورية وأنصار الاتحاد الفدرالي أن تهادن سلطة الحرس القومي بعد قيام انقلاب 8 شباط القوميين والناصريين، ولكن هذه المهادنة لم تدم إلّا أياما معدودات، فسرعان ما كشّر نظام 8 شباط عن أنياب حادة جعلت القوميين العرب يدخلون في مواجهة صريحة معه.

فبعد أيام قلائل من قيام الانقلاب بدأ الحرس القومي بمطالبة الحركيين أن يسلموا سلاحهم الذي منحتهم إياه الحركة، في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، الحركيون رفضوا ذلك، وطالبوا بإشراكهم في قيادة الحرس القومي، ثمّ بدأ صوتهم يعلو متحدثا عن سيادة القانون وعدم تدخل الحرس القومي بشؤون أجهزة الدولة، ومن بين ذلك التدخل بشؤون القضاة، وذات يوم استيقظ الناس فوجدوا شعارات مخطوطة على الجدران، ومذيلة باسم حركة القوميين العرب، من بينها: " **نطالب بإطلاق الحريات الديمقراطية** " و" **لا دكتاتورية**

ولا انتهازية"، كان صادق جعفر بخطه الجميل يطرز تلك الشعارات على واجهات شارع الطوسي والميدان والسور والجديدة.

وفي يوم 17 نيسان وحيث أعلن ميثاق الوحدة الثلاثي بين مصر وسوريا والعراق، نظمت حركة القوميين العرب تظاهرة ضخمة تأييدا لهذا الاتفاق، تصدى الحرس القومي لها وحاول تفريقها، لكن الحركيين قاوموا محاولة التفريق حتى ألقيت الكلمة الختامية بأكملها، بعد أيام قلائل جرى الإعداد لتظاهرة أخرى تنطلق من مدينة الكوفة، فاتجه الحركيون في النجف للاشتراك مع رفاقهم هناك، سالكين طريقا ترابية عكرة، خشية أن يعترض الحرس القومي طريقهم، فانقلبت بهم إحدى السيارتين اللتين تقلّانهما، لكنهم ورغم ذلك واصلوا السير إلى مكان التظاهرة برضوض وكدمات، وهناك وقعت مصادمة بينهم وبين الحرس القومي، بعدها اعتقل عدد كبير من القوميين، قضوا في السجن ليلة واحدة ثمّ أطلق سراحهم.

أن ما حصل في النجف من حركة القوميين العرب تكرر في الكثير من مدن العراق، مما حدا بسلطة 8 شباط أن تشن حملة لتهديم تنظيمهم على امتداد العراق، فأعلنت من خلال الإذاعة بيانا تتهم فيه الحركة بالتآمر لقلب نظام الحكم، وبدأت بشن حملة اعتقالات شرسة، وكان للنجف نصيب من ذلك، فقد بعث عدد من هؤلاء المعتقلين إلى سجن نقرة السلمان من بينهم: محمد علي الحار وعبد الزهرة الخافوري وغازي الأسدي، بينما احتجزت مجموعة أخرى في مقر

الحرس القومي في نقابة المعلمين، من بينهم: مسلم زاير وصادق جعفر ومحمد علي أسد، وكان رد هذه المجموعة على التعامل السيئ من قبل الحرس القومي هو الإضراب عن الطعام، فجاء رد الحرس القومي بنقل المضربين إلى مركز الحرس القومي في الحلة، وهناك أنزلوا إلى سرداب - كما يروي صادق جعفر- فيه آثار دماء وأدوات تعذيب وتعليق؛ لخلق جو إرهابي، في تلك الفترة زارهم مسؤول من حزب البعث في النجف محققا معهم، وكان من ضمن ادعاءاته أن الحركيين في النجف قد اعترفوا عليهم بأنهم قد تسلموا رشاشات من تنظيم الحركة، فأنكر السجناء ذلك، واستمرّوا في إضرابهم عن الطعام حتى أغمي على البعض فنقلوا إلى المستشفى، أذ ذاك أبلغهم أفراد الحرس القومي بأنهم سيطلقون سراحهم إذا ما كسروا إضرابهم، فاستجاب لهم المعتقلون، غير أن الحرس القومي بدل أن يطلق سراحهم، رحـّلهم إلى مديرية الأمن العامة في بغداد، يقول أحدهم: بقينا فترة في زنزانات الأمن العامة، ثمّ نقلنا إلى مقر الحرس القومي في الأعظمية (الذي صار فيما بعد مقرا لوزارة الشباب)، هناك التقينا بعدد من الشيوعيين البارزين، الذين استقبلوا ضيوفهم القوميين بتقديم الطعام لهم.

أما السيد حميد زوين أحد أعضاء الحركة فإنه حين علم بأمر إلقاء القبض عليه، سعى إلى الاختفاء في الديوانية، وحين أحس بأن المسؤولين علموا بمكان اختفائه توجه إلى بغداد، وهناك جرى اعتقاله من قبل أفراد الحرس القومي أثناء جلوسه في إحدى مقاهي الحيدر خانة، واقتيد إلى مقر

الحرس القومي في الكسرة، ثم شدت عيناه ونقل إلى مكان مجهول، ليكتشف نفسه بعد مدة من الزمن أنه في قصر النهاية، قضى وقته في ذلك القصر المنيف مربوط اليدين إلى أنبوب ماء والسياط تصفعه، من أهم ذكرياته هناك أنه رأى ابنة مدينته نرجس الصفار يرمى بها من الطابق الثاني إلى الأرض، ولم يطل مقام حميد زوين في قصر النهاية فهو سرعان ما نقل إلى ملعب الكشافة، ليستقر في غرفة صغيرة تضم أربعة أشخاص.

شملت حملة الاعتقالات بعد 17 نيسان القوميين في مدينة المشخاب، فاعتقل في مقر الحرس القومي الذي اتخذ مكتبة المشخاب العامة مقرا له عدد من الحركيين من بينهم جواد عبد الكاظم ومحسن كريم الغزالي وتعرضوا إلى التعذيب الشديد، لكن الهجمة الأشرس واجهتهم مع بدء العام الدراسي الجديد، حيث جرت الانتخابات الطلابية، فكان أن تحشّد القوميون في قائمة انتخابية اكتسحت قائمة البعثيين اكتساحا عظيما، فجاء رد السلطة باعتقال أكثر من ثلاثين طالبا من القوميين، جرى ترحيلهم إلى مركز شرطة الشنافية.

بعد أن ظن جهاز الحرس القومي أنه قد أكمل تصفية حركة القوميين العرب فوجئ ذات صباح بجريدة الوحدة لسان حال الحركة تصدر في طبعة سرية بجهاز الرونيو، وتوزع بكثافة، فطار لبّه وعاد إلى اعتقال الحركيين الذين أطلق سراحهم قبل أيام قليلة.

* * *

احتفالا بنصرهم المؤزر كان عدد من كبار المسؤولين يزور

مدينة النجف، وقد تهيّأ الحرس القومي لاستقبالهم، فأعد منصة ضخمة على عتبة مركز شرطة المدينة، وزّين ساحة الميدان بأوراق الزينة والمصابيح، وملأها بما يقارب عشرة آلاف كرسي بعضها من الخشب والبعض الآخر من الحديد، والأمن مستتب ما دامت ساحة الاحتفال تقع بين مركز الشرطة ومقر الحرس القومي، وما دام أفراد الحرس القومي يحيطون بالمحتفلين من كل جانب ومكان معززين بغدارات البورسعيد، وما دامت ثورة البعث قد قضت على جميع أعدائها من شيوعيين وقوميين وناصريين وإسلاميين، لكن المشكلة الكأداء هي توفير الجمهور، فكيف سيملئون آلاف الكراسي والجماهير لا تطيق رؤية وجوههم؟! وجاء الحل الناجع من قبل أحد المتصرفين، فقرر أن يجلب لهم من أبناء اللواء المعهود إليه ما يشاءون من الفلاحين، جمهورا مسالما مطواعا... هكذا كتب على آلاف الفلاحين أن يقتادهم المتصرف إلى ذلك الاحتفال، وأن يضع كل واحد منهم على الكرسي المخصص له مهيئّا كفيه للتصفيق الحاد كلما سمع لفظة البعث أو ثورة 14 رمضان.

بدأ الحفل نشاطه وتعالى دوي الحناجر بالهتاف واتقدت الأكفّ بالتصفيق الحاد، غير أن عددا من الأطفال المشاكسين والصبية الذين لم يبلغوا الحلم، كانوا يتجولون بين صفوف الجالسين ويشدون ذيول كوفيّاتهم إلى الكراسي التي يجلسون عليها، بعد مرور ساعة على هذه الممارسة اتقدت في مؤخرة الحفل شرارة كهربائية من احتكاك سلكين ببعضهما فأحدثت فرقعة، جعلت الجمهور القريب منها يبتعد عن المكان تحاشيا

للخطر، والأبعدون يقفون على أهبة الاستعداد، لكن الأمر الجلل أن هؤلاء الذين حاولوا مغادرة أماكنهم وجدوا الكراسي تجذبهم أو تجذب كوفياتهم إليها، وقتها لم يدر بخلدهم إلّا شيء واحد: إن الله قد ألصق الكراسي إلى ظهورهم؛ لأن في حضورهم الاحتفال عصيانا له، ترك بعضهم عقاله وكوفيته وفرّ بجلده، وأصر آخرون على انتزاع كوفياتهم بنكت الكراسي، معتذرين إلى الله سبحانه وتعالى بأنهم جاؤوا مجبرين وليسوا بمحض أرادتهم، لكن الكراسي شاركت في المؤامرة، فلم تطلق سراح الكوفيات وإنما أحدث ارتطامها بالأرض دويا أفزع الحاضرين، فإذا برجال الحرس القومي المحيطين بالاحتفال يرمون بغدّارات البورسعيد إلى الأرض، ويلوذون بالفرار، وفي زحمة الفوضى والرعب انهارت المنصة المنيفة، فلم يكن أمام المسؤولين الكبار القادمين من العاصمة إلّا أن يختبئوا في مركز الشرطة الذي كانت المنصة تقف على عتبته، وفي رواية أخرى أن هؤلاء المسؤولين وجدوا مركز الشرطة بعيدا على أقدامهم الخائفة، فلجئوا إلى دكان الباجة المجاور للمركز، وأسدلوا (الفنر) عليهم.

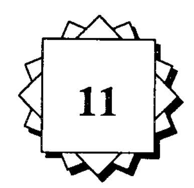
هكذا أنفضّ الحفل ولم يخلّف غير منصة مهشمة وكراسيّ مبعثرة تتناثر بينها مئات الغدارات وآلاف الأحذية والعباءات والكوفيات والعُقُل، بينما تجمّع على الأطراف الجنوبية للمدينة آلاف الفارين من ساحة الاحتفال حفاة حاسري الرؤوس مرددين أهزوجة جميلة: "مليوصه يا . . . " .

في الصباح الباكر من يوم 18 تشرين الثاني 1963 استيقظ

الناس على صوت المشير الركن عبد السلام عارف رئيس الجمهورية معلنا من الإذاعة بيانه الأول، يستعرض فيه الجرائم التي ارتكبتها سلطة 8 شباط، ويعلن حلّ الحرس اللاقومي -على حد تعبيره- ويدعو القوات المسلحة لأن تنزل إلى الشوارع، وتأخذ دورها في حماية الأمن...

حين سمع الناس البيان خرجوا إلى الشوارع، والبهجة مرسومة على وجوههم، متجهين نحو ساحة الميدان حيث المقر الرئيس للحرس القومي، وهناك وجدوا آمر حامية النجف يخاطب قوات الحرس القومي عبر مكبر الصوت، ويطالبهم بمغادرة مبنى المكتبة العامة ومدرسة الغريّ بعد أن يتجرّدوا من سلاحهم ولباسهم العسكري، وإلا فإنه سوف يقصف المبنيين على رؤوسهم، لم يطل الانتظار، فسرعان ما خرجت أسراب الحرس القومي من باب المكتبة العامة، بعضهم بالدشاديش والبعض الآخر بالفانيلة واللباس الداخلي، وسط سخرية المواطنين واستهزائهم.





النجف بخصوصية تكوينها الاجتماعي وبنائها الفكري تشكل متاهات ترعب الحاكمين، ولعل معمارها المعقد المتشابك صورة مرئية لذلك التكوين، بقدر ما يتضمن المكان من دلالات على المكين، إن شبكة الأزقة الضيقة الملتوية والسراديب المتعددة الطوابق والآبار العباسية المتشابكة المياه كانت حصونا منيعة لأهالي المدينة يقاومون بها كل سلطة ظالمة على امتداد العصور، لذلك كان توجه الزمرة الطاغية بعد أن قفزت إلى دفة الحكم قي انقلاب 17 تموز 1968، إلى هدم المدينة القديمة ومحو معالمها، هكذا جرى هدم محلة العمارة، وهي واحدة من أقدم محلات النجف وأكبرها، تمتد من الصحن الحيدري الشريف، متجهة نحو الغرب، ثم تهبط مع السفح فتشغل حيّزا من الضفة الشرقية لبحر النجف، لقد هدّمت تلك المحلة بأكملها، ومعها المدارس الدينية الأثرية الكثيرة، والمساجد القديمة، لقد امّحت تلك المحلة من خارطة المدينة، وصارت بلقعا تصفر فيها الريح.

ثم امتدت أصابع التخريب إلى مختلف المجالات، فمدرسة الحكمة التي تضم مكتبة عملاقة تحتوي على مئات الألوف من الكتب المهمة، من بينها المخطوطات النادرة

والكتب ذات الطبعات الحجرية، أتلفت عند دخول الجيش النجف في المدة المشار إليها نفسها، فقد بادر قائد الجيش إلى نسف مبنى مدرسة الحكمة فضاعت الكتب تحت الأنقاض، وعادوا إلى إخراجها بوساطة الشفلات ونقلها بالطريقة نفسها إلى فندق النجف (الذي كان مقرا للحاكم العسكري آنذاك) ورميها في حديقة الفندق تعبث فيها الرياح والأمطار وأيدي الجهلة.

أما عن سلسلة القمع وما تضمنته من وسائل التعذيب والإعدامات فلم تبدأ منذ استلامهم السلطة، بل سبقت ذلك بأشهر.

ففي الآونة الأخيرة من حكم الرئيس عبد الرحمن عارف، كان البعث اليمين (وتلك هي التسمية التي أطلقت أواخر الستينات على عصابة البكر- صدام) يهمس في أذن بعض رجال الحكم عن محاولة انقلابية يخطط لها جماعة البعث اليسار، وراح يدلهم على أهم الأوكار الحزبية لجماعة سوريا، لم تكن المشكلة كبيرة آنذاك فقد داهم رجال الأمن تلك الأوكار، وصادروا بعض الوثائق، واعتقلوا أشخاصا ثم أطلقوا سراحهم خلال أيام، لكن المشكلة الحقيقية انبثقت بعد تسلم البعثيين السلطة فعلى ضوء المعلومات التي وفرتها لهم تلك الوثائق جرى اعتقال وتصفية أفراد البعث اليسار، وكان للنجف نصيبها من تلك العمليات.

يتذكر النجفيون الأيام الأولى التي أعقبت انقلاب 17 تموز، والنبذ الاجتماعي الذي كانت تتعرض له الشرذمة الصغيرة التي أطلق عليها لقب البعث اليمين، وهي تحمل

على كاهلها عار انقلاب 8 شباط، والمآسي التي مورست ضد أبناء الشعب، هكذا بدأت عصابة البعث اليمين تجربتها برفاق الأمس، فكانوا لا يعتمدون في الاعتقال على أفراد الجهاز الأمني، لأنه ما زال يحمل ملامح السلطة السابقة، وإنما يتولون بأنفسهم قيادة المفارز الأمنية واقتحام بيوت رفاقهم القدامى.

ومع الأشهر الأولى أيضا وفي غمرة الانتخابات العمالية كانت السلطة الجديدة تعتقل اثنين من الشيوعين وتبعثهم إلى الأمن العامة في بغداد، وفي عام 1969 وضمن الضربة الموجهة إلى الحزب الشيوعي (جماعة القيادة المركزية) كان للنجف نصيبها، فاعتقل بعض أفراد ذلك الحزب وحكم عليهم بالسجن، وبين عامي 72 - 1973 جرى اعتقال القوميين من أعضاء الحركة الاشتراكية العربية، وفي تلك الفترة أيضا جرى التوجه نحو حزب الدعوة الإسلامية، فشنت حملة اعتقالات ضد أعضائه، وكان الإجراء الأخطر الطريقة التي أعدم بها السيد عبد الصاحب دخيل، حيث ذوبه السفاحون في حوض من أحواض التيزاب، ثم إعدام عدد من رجال حزب الدعوة عام 1974، من بينهم الشيخ عارف البصري ونوري طعمة وحسين جلوخان وعز الدين القبنجي وعماد الدين الطباطبائي.

في النصف الثاني من السبعينات التفتت السلطة إلى حلفائها في الجبهة الوطنية، فبدأت بمضايقة الطلبة الشيوعيين ففصل بعضهم من المدارس بأعذار واهية، ثم تصاعدت الحملة فاعتقل خمسة شيوعيين وحكموا لمدة ستة أشهر بتهمة

الإساءة إلى حزب البعث، وحكم آخر ثلاث سنوات بتهمة قذف السلطة، واعتقلت عناصر أخرى وتعرضت إلى أنماط مختلفة من التعذيب من بينها إدخال سلك في قضيب أحدهم، وإجلاس آخر على قنينة مرطبات، جرت تلك الأمور والحزب الشيوعي مازال حليفا في الجبهة الوطنية، أما بعد انفصام عرى تلك الجبهة، فقد تعرضت بيوت الشيوعيين إلى مداهمات من قبل الأجهزة الأمنية، من الشيوعيين الذين أعدموا في الثمانينيات السيد علي العذاري والسيد حسين ضافي شنوف،الذي قبض عليه في منطقة بحر النجف.

بعد انتقال السلطة إلى قبضة صدام حسين حصلت متغيرات كثيرة، في مقدمتها اعتماد حاسة الشمّ، فالقاضي لم يعد بحاجة إلى أدلـة ثبوتية، وإنما يكفي أن يقول المسئول الحزبي أني أشمّ بهذا الشخص رائحة العداء للحزب ليوصله إلى الموت، بانتهاج هذه السياسة غيبت وجوه لا تحصى، وانطفأت عوائل بأكملها، من بينها عائلة الدكتور الشهرستاني، الذي أعدم جميع أولاده في بداية عام ثمانين، يتذكر الفتى وقتها كتابا عمم على جميع المدارس مفاده معاقبة مديرة المدرسة بطردها من الوظيفة لأنها تسترت على اثنتين من المعلمات أبدين مظاهر الحزن عند تعزية زميلتهما زوجة الدكتور الشهرستاني، التي أعدم جميع أبنائها، وترقية معاونة المدرسة إلى مديرة، لأنها أبلغت عن جريمة المعلمتين المذكورتين.



مع مطلع السبعينات كانت دوائر الجنسية في عموم العراق تتتبّع المنحدرين من أصول إيرانية لتسفيرهم إلى إيران، وكانت تمنحهم فرصة لأيام معدودة لاستكمال المتعلقات الضرورية قبل أن يتم تسفيرهم، وفي عام 1975 كانت الممارسة تتجه إلى الجالية الأفغانية، وهي كبيرة في النجف كما هو معلوم.

يتذكر الفتى ليلة من ليالي ذلك العام، كانت أعداد غفيرة من رجال الأجهزة الأمنية تهبط على شوارع النجف من خارجها وقت صلاة المغرب، وتتجه صوب الصحن الحيدري الشريف، حتى إذا انتهت الصلاة وخرج المصلون من الصحن، وجلّهم من رجال الدين، داهمهم رجال الأمن يطالبونهم بشهادات الجنسية، ثم ليقتادوهم إلى مراكز التوقيف، بهذه الطريقة سفّر من لا يملك شهادة الجنسية العراقية إلى خارج العراق، وأطلق سراح العراقي بعد أن تعلم دروسا مفيدة عن حياة السجون.

بعد انتصار الثورة الإيرانية ووصول صدام حسين إلى الموقع الأول في السلطة صارت القبضة أشد شراسة، لم يقتصر التهجير على الأجانب، بل امتد ليشمل العراقيين الذين ينتمون إلى أصول إيرانية، بعض من سفروا كانوا يحملون وثائق كويتية أو بحرينية، لكن يشك بأنهم من أصل إيراني، كانوا يداهمون البيت على غرة، ويعتقلون أفراد العائلة دون أن يسمحوا لهم أن يأخذوا معهم شيئا من محتويات الدار، ويرمونهم في العراء على الحدود العراقية الإيرانية، وكثيرا ما انقسمت العائلة على قسمين أو أكثر، لأن بعض أبنائها كانوا في المدارس حين مداهمة الدار.

التوجيه الذي وصل إلى أقزام الجهاز الحزبي من قيادتهم يوصيهم بكل من يعبـّر عن أدنى تعاطف مع هؤلاء الذين يتعرضون للتهجير، أو يقول لفظة "خطيـّة" بحقهم، على أفراد الأمن والجهاز الحزبي أن يضربوه بقسوة على مرأى ومسمع من الناس، ثم يقتادوه إلى مقرات الأمن.

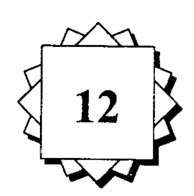
هكذا هجرت آلاف العوائل من النجف وفرغت آلاف الدور، حاول النظام أن يبيع بعض تلك الدور والممتلكات، لكن القيم الإيجابية لدى أبناء النجف وقفت مانعا بوجه هذه العملية، لم يستطع النظام أن يبيع إلّا النزر اليسير من بين تلك الممتلكات وبأسعار زهيدة، وقد لبس العار تلك الأقلية التي أقدمت على شراء تلك الممتلكات.



من المظاهر التي تميزت بها النجف والجزء الأوسع من العراق ممارسة الشعائر الحسينية: مجالس التعزية ومواكب اللطم، والمآدب الضخمة وزيارة الأولياء مشيا، والمشاعل التي كانت تنطلق في الليالي العشرة الأولى من شهر محرم الحرام من مقام الإمام زين العابدين في محلة العمارة متجهة نحو الصحن الشريف مصحوبة بالأهازيج الجميلة، تلك نشاطات توارثها العراقيون منذ قيام حركة التوابين في العصر الأموي، والبعض يردّها إلى عصور موغلة في القدم، لكنها شكلت في عهد سلطة البعث مشكلة كبيرة، فالزمرة الحاكمة ترى فيها خطرا يهدد عرشها، والجماهير ترى في تركها

عصيانا يستوجب النقمة الإلهية، منذ الأيام الأولى لتسلمهم السلطة بدؤوا بمنع مواكب اللطم ومواكب المشاعل، واستدعاء الخطباء الحسينيين وحثهم على تمجيد السلطة في مجالسهم، وقد تتوجت النشاطات المعادية لتلك المظاهر عام 1977، يوم اندلعت انتفاضة جماهيرية عارمة انطلقت من النجف باتجاه كربلاء فوقع الصدام بينها وبين قوات الحكومة في خان النصف، انتهت باعتقال عشرات الألوف من المواطنين وإعدام عدد منهم.





حين حلت الساعة الثالثة من اليوم الثالث من الشهر الثالث من عام 1991، رأى الناس ما لم يكن في الحسبان، لم يصدقوا ما يحصل أمامهم، يا إلهي .. كيف لصبي في السادسة عشرة أن يهاجم بخنجر صغير كادرا حزبيا بدرجة عضو قيادة شعبة أو أكثر، ويجندله أرضا، ويستولي على مسدسه او بندقيته، في وضح الظهيرة وعلى مرأى ومسمع من الناس!!!

المدينة موحشة قلقة تنتظر حدثا ليس في حسابها، الشوارع خالية من الناس، الأسواق نصف مغلقة، وسائل الاتصال معطلة تماما فقد قصفت كل مراكزها من قبل العدو، في اليوم الأول من الحرب، الكهرباء معطلة أيضا، سعيد جدا من يملك بطاريات لأجهزة الراديو، هكذا صارت متابعة الأخبار مسألة صعبة... الحزبيون ببدلاتهم الزيتونية وكامل عددهم الحربية يتمركزون في الشوارع المهمة من المدينة، حشود من الشباب يخرجون من الأزقة الفرعية، فرادى ملثمين يهاجمون ذوي البدلات الزيتونية، ويستولون على أسلحتهم، انسحب الحزبيون من الشوارع العامة إلى المقرات الحزبية صار الشباب الملثمون يأخذون مواقعهم في مقابل المقرات، ويطلقون النار عليها، جماعات الشباب أخذت بالاتساع، صاروا يأتون بشكل تظاهرات كبيرة أنشودتهم واحدة:

الله ومحمد وعلي والحسين ويانا

أصحاب البدلات الزيتونية يتراجعون. . . يحل عليهم الخذلان، بعضهم يرمي بسلاحه إلى الأرض ويعبر سياج المقر، لائذا بالفرار، وآخرون يخلعون بدلاتهم الزيتونية ويفرون بالفانيلة واللباس الداخلي. . . السعيد منهم من جاء إلى الواجب بالبدلة المدنية، فقد كان هروبه أكثر أمانا، صورة الرجل المنبطح بانتظار المرأة المغولية تغيب عن مخيلته وتحل محلها صورة راعية الأغنام التي تأسر الجنديين والثلاثة بعصاها، حين حلت الساعة الخامسة عصرا كانت حامية النجف قد سقطت بأيدي الشباب، ومعها مقر الشعبة الحزبية في حي الأنصار، أما مراكز الشرطة فقد غادرها منتسبوها دون أية مواجهة.

الفتى يقرر الذهاب إلى دار والده للاطمئنان على العائلة، في الطريق تواجهه جموع أفراد الجيش متجهين إلى بيوتهم مشيا على الأقدام، بعد أن سقطت الحامية بأيدي المتظاهرين، أهل المنطقة يقفون على أبواب دورهم، يستطلعون الأخبار، ويصبون لعناتهم على صدام حسين دون ان يخشوا وشاية من أحد!!!!

جماهير الشباب في غليان دائم، حين حلت الساعة العاشرة ليلا، استطاعت إسقاط مقر قيادة الشعبة في مركز المدينة، وقتل أعداد من الكوادر الحزبية، ثم توجهت إلى قيادة شعبة الحسين، في الحنانة، غليان الجماهير مستمر، الفتى يتابع حركة الجماهير من بعيد، كل ساعة يصعد إلى سطح داره، الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات من مركز المدينة، ظل دوي التظاهرات قائما حتى الصباح، وقبل شروق الشمس، توجه إلى بيت عمه في حي العلماء يستطلع

الأخبار، ويطمئنّ عليهم، في الطريق إليهم وصل إلى مسامعه نبأ سقوط مقر قيادة شعبة الحسين، الواقعة في محلة الحنانة، الشباب ذوو الدشاديش والكوفيات يلاقونه حاملين بنادقهم متجهين أسرابا إلى مركز المدينة.

عند عودته تأكد له أن القتال يدور حول شعبة الحسين فهي لم تسقط حتى تلك اللحظة، حين وصل إلى داره وجد محلته قد تحولت إلى جبهة ساخنة، فمقر قيادة الفرع قد تحول إلى ترسانة للسلاح، وخاصة بعد أن سقطت المقرات الأخرى بأيدي الثوار، وقد جعل من المباني المجاورة درعا لوقايته، فكانت الطلقات تأتي إلى محلته من مبنى رئاسة الجامعة، وكان الطرف المقابل لهم عدد من الشباب واضح من هيأتهم ومن طريقة قتالهم أنهم تدربوا جيدا على حرب الشوارع، كانوا يحسنون التسديد والرماية وتحديد العدو ويمتلكون القدرة على المراوغة والاختفاء، خلافا للطرف المتمترس الذي كان يطلق النار خبط عشواء.

بعد دقائق من وصوله رأى أحد أبناء المحلة يطلق النار من بندقيته باتجاه مبنى رئاسة الجامعة، سأله:

- ما الأمر.

قال:

- قتلوا أخي.

ثم انهار باكيا.

ظل الفتى يتساءل عن هؤلاء الذين يقاتلون قتالا منظما في مواجهة الجهاز الحزبي. بعد لحظات تذكر خبرا تناقلته

وكالات الأنباء في الأسبوع الأول لبدء الحرب، أن ثلاثة آلاف شخص قد تسللوا من إيران إلى العراق، خلال الأيام الماضية، فاتضحت لديه الصورة عما يجري في تلك اللحظة.

مع انتصاف النهار شاهد الناس اثني عشر سيارة حديثة تنطلق من مقر الفرع متجهة إلى الشمال بسرعة فائقة، وكان الراكبون يوجهون فوهات بنادقهم إلى جانبي الطريق، هتف أحد الواقفين:

- هؤلاء أعضاء قيادة الفرع.

ضج الواقفون على الطريق:

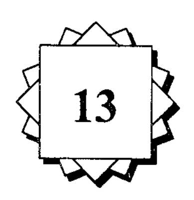
- هرب الجبناء... هربوا... هربوا...

- ونادى أحدهم:

- كظّه... كظّه

وحين أكمل الأخير عبارته كان أعضاء قيادة الفرع قد قطعوا شوطا بعيدا في الانطلاق.

وفي الساعة الثانية ظهرا كانت دبابة تتقدم من جهة البحر إلى مقر قيادة شعبة الحسين، فتوجه إليها قذيفتين، ثم تسير نحو قيادة الفرع فتوجه إليه ثلاث قذائف، فيتشتت المعسكرون فيه خارجين، فيهجم عليهم المتظاهرون ويصير مقر قيادة الفرع في قبضتهم. وتعلن المدينة تحررها من قبضة صدام حسين. ثم يجري نهب مقر قيادة الفرع بما فيه من أسلحة وعتاد، ويكون نصيب الفتى من الغنائم الغلاف النحاسي لقذيفة الدبابة التي أسقطت مقر قيادة الفرع، وفي الليل بدأ نهب مقرات الدوائر المجاورة لمقر الفرع، وما فيها من أثاث.



مرت عشرة أيام على غياب السلطة عن المدينة، الناس لا تعرف من يحكمها، الكل يقول لا أدري، لكي تستطلع الأخبار عليك أن تقطع سبعة كيلومترات مشيا على الأقدام في الذهاب إلى مركز المدينة، ومثلها عند الإياب، لكي ترجع إلى أهلك بخفي حنين، إذا بقي لحنين خفان، وفي النهاية لا تأتي إلا بالإشاعات، المفارز على الطريق كثيرة، كلها تحمل البنادق وتلبس الدشاديش والكوفيات، والمارة مثلهم، أغلبهم يسيرون حاملين بنادقهم مرتدين الدشاديش والكوفيات، قلة ألئك الذين يسيرون مرتدين البنطلون، وهم في سيرهم كثيرا ما يتعرضون إلى طلب الهويات، والسؤال عن مهنهم من قبل المفارز، حتى من لا يحمل هوية جوابه جاهز على حافة شفتيه:

- ليس لدي هوية، أنا هارب من الجيش.

وتكون الإجابة سريعة

- اذهب. بارك الله بك.

الفتى حاول أن يعرف شيئا عن هوية تلك المفارز، التي تحرس الطرقات والأماكن العامة، مرة سمع أحد جيرانه يتحدث، وكان واحدا من المشاركين فيها، قال الرجل:

- انتهى كل شيء. العراق صار دولة إسلامية.

هو دخل على الخط وسأل:

- يعني ماذا تعني دولة إسلامية؟

فوجئ الرجل بسؤاله، رد بتلعثم.

- دولة إسلامية، هل هناك شخص لا يعرف ما معنى دولة إسلامية!!!!

- أنا لا أعرف.

وبعد لحظة تفكير أجاب الرجل:

- دولة إسلامية يعني دولة ليس فيها جيش ولا شرطة مرور.

بعد عدة أيام سمع الرجل من يقول أن بعضا من قوات صدام تقف بالقرب من المطحنة، فحمل بندقيته وانطلق نحوهم، وبعد دخول الجيش علم الفتى أن جاره الذي تحدث عن الدولة الإسلامية كان في طليعة القتلى الذين سقطوا عند دخول الجيش، ذهب وهو لا يعرف شيئا عن سبب موته.

في الأيام الأولى قتل الكثير من زبانية النظام، وتركت جثثهم على الطرقات لأكثر من يومين، حتى جاء أمر المرجع الأعلى بوجوب دفنهم، فدفنوا، ثم صاروا يلقون القبض على البعثيين ويودعونهم السجن، بأمر من؟ ومن يصدر أوامر الاعتقال؟ لا أحد يدري. في البدء كانوا يعتقلون في إحدى غرف الصحن الحيدري، ثم جرى نقلهم إلى مدرسة الحكمة في محلة المشراق.

في يوم 13/ 3 وعند الغروب لاحظت امرأة تقف على سطح دارها أن طائرة هوليكبتر تحط على طرف المدينة، هتفت المرأة بالخبر، لكن لم يصدقها أحد من الجيران، ربما

لأن زوجها كان واحدا من زبانية النظام الهاربين، سمعها أحدهم فأجاب:

- هذه دعاية يروجها البعثيون.

وعلق آخر:

- لا رجعة للبعثيين بعد اليوم.

وبعد أقل من ساعة أقبل جماعة من أهل المحلة، فقالوا أنهم شهدوا قوات عسكرية تقف على مقربة من المطحنة الواقعة في طريق كربلاء، ظل الناس بين مصدق ومكذب، وبعد ساعتين دوى أطلاق نار كثيف، بحيث تغير لون السماء، ثمّ جاءت الأخبار، تنقل أن صدام حسين قد مات، وأن هذا الرمي احتفال بموته. خيم هدوء شديد لعشر دقائق فقط ثم بدأ دوي المدافع، بعضه كان انفلاقا جويا، وبعضه كان قصفا حقيقيا، فسقطت قذيفة على شارع المدينة، وأخرى على مقربة من مسجد الكوفة، نزل الناس إلى الطوابق الأرضية، وبعد ساعات قرر بعضهم مغادرة المحلة إلى أماكن أكثر أمانا.

قبل شروق الشمس قرر الفتى مغادرة المدينة حتى يتوقف القصف، أصطحب جميع أفراد عائلته وتحركوا باتجاه مدينة أبو صخير، وجدوا المئات من العوائل تسلك الطريق نفسه، حل عليهم الغروب والقصف ما زال متواصلا، فاضطروا إلى المبيت في مدرسة، على الطريق، في تلك الليلة لاحظ الفتى، أن سيارات كثيرة كانت تنقل المقاتلين إلى النجف وهم يرددون أهزوجتهم المفضلة:

الله ومحمد وعلي والحسين ويانا

في الصباح واصلت العوائل توجهها إلى أبو صخير، والقصف ما زال مستمرا، هناك وجدوا مكانا لهم مع كثير من العوائل في مقر القائممقامية، التي صارت خلال الأيام الأخيرة مركزا للمجاهدين، وبعد الظهر توجهوا جهة المشخاب لينتهوا إلى مدرسة في قرية تدعى مجيهيلة، فأقاموا فيها لأربعة أيام متوالية.

كان الفتى يتوجه كل صباح إلى مدينة أبو صخير لاستطلاع الأخبار، فلم يجمع غير الأكاذيب الزائفة، وخلاصة ما جمعه من أخبار، أن وحدة عسكرية كانت قادمة من البصرة، وهي الآن محاصرة بين الحلة والرارنجية من قبل المجاهدين، وهي تقصف بشكل أعمى كي تفك الحصار عنها، وإن سحقها يتطلب أربعة أيام أخرى، وكانت مكبرات الصوت في الجوامع تذيع فتاوى منسوبة إلى المرجع الأعلى، تدعو أبناء النجف إلى العودة ومواصلة الجهاد من هناك وأن من يتخلف تحرم عليه زوجته، كما كانت تذيع أخبارا عن مقر المرجع الأعلى الذي تجاوز التسعين، أنه قد أمسك سيفه متحفزا للقتال.

كان ذلك صباح يوم 17 / 3 وعند العصر دخل المدرسة - التي تسكنها العوائل الهاربة من القصف -رجل قادم من النجف، سألوه عن الموقف هناك، رد بأن الجيش دخل المدينة وبدأ يفتش البيوت بيت بيت، وقد طلبوا منه أن يدعو أفراد عائلته إلى العودة الى بيوتهم، لم يصدق الناس كلامه، فكان هناك من يقول: أن القوات الداخلة الى النجف تذبح كل من تجده في المدينة، وتقتل من يعود إليها.

وفي مدينة النجف كان الجيش يتقدم ببطء شديد نحو قلب المدينة ويقتحم، البيوت الخالية والمأهولة، ويفتشها تفتيشا دقيقا، حتى إذا وصل في يوم 17 / 3 إلى حي السعد، أحاط بدار المرجع الأعلى من كل الجهات، وحطت طائرة هوليكبتر، لتنقله برفقة ابنه البكر إلى بغداد ليمثل أمام صدام حسين.

ظل الجيش يواصل سيره الوئيد نحو مركز المدينة، حتى إذا دخلها في يوم 18 / 3 وجه مكبرات الصوت داعيا الناس إلى مغادرة بيوتهم والتوجه إلى خارج المدينة، وحين وصل إلى ساحة الميدان كانت مدفعيته توجه قذيفة، إلى قبة الصحن الحيدري، وأخرى إلى الباب الرئيسة للصحن، وكانت بنادقه الرشاشة تحصد المئات من الناس الذين لاذوا بالضريح المقدس، وفي عام 1712 ق.م. كان الأعداء يهبّون على مدينة اور كالأعاصير العاتية، وقد امتلأت الطرقات والأبواب بجثث القتلى، وتعالى أنين الجرحى ولا من يغيثهم، لقد هلك الأقوياء والضعفاء جوعا، ومات الناس في حرائق بيوتهم، أنكرت الأم طفلها، وهجر الزوج زوجه، ودكت الفؤوس الضخمة معبد إي ـ كرشكال، امتهنه العيلاميون والسوباريون الذين أحلو الخراب والدمار في أور.

لقد مرت الأيام والسنون وصور المعارك الضارية مرسومة في ذاكرة الناس، يروونها كلما سنحت الفرصة لهم، يتذكر الفتى جيدا، حانة الثلوج في شارع الخيام ببغداد، يوم كان يجلس وحيدا، وأمامه زجاجة بيرة، وعلى مقربة منه، رجل أنيق يحتسي من زجاجة ويسكي أمامه، كان الرجل يلبس

وجهه الرسمي في بداية الجلسة، ثم صار مرحا خفيف الظل حين لعبت الخمرة برأسه، اخذ يتودد أليه، وحين عرف أنه من النجف، صار معه بمنتهى اللطف، وقال له:

- يا أخي أنتم أبطال، وشجعان بمنتهى الشجاعة.

ثم قدم نفسه له قائلا:

- أنا رجل من الموصل، وانا نقيب في الحرس الجمهوري، لقد عرفنا بطولتكم من خلال المقاومة التي أبديتموها عند دخول الجيش، أنا كنت واحدا من الضباط الذين دخلوا النجف في أحداث 1991. . . لقد رأينا بأمّ أعيننا بطولاتكم، تصور كانت تواجهنا زخات عنيفة من الرصاص، من زاوية قرب مسجد الطوسي. . . شغلتنا فترة طويلة، تصور. قضينا أكثر من ساعتين نراوح في مواقعنا، حتى استطعنا إسكات مصدر الطلقات، وحين تقدمنا إلى ذلك الموقع، لم نجد غير جثة لرجل واحد وقد عقل ساقه على فخذه، لئلا يستطيع الهروب في لحظة ضعف. تصور مثل هذا الرجل أليس جديرا بتمثال في ساحة الفردوس؟!!.

وقتها كان الفتى قد شرب كثيرا، ولكنه ظل يقضا لم يعتره السكر، لأنه كان يدرك أن أي خدر يعتري وعيه سيؤدي به إلى الموت المحتم.

بعد أن دخل الجيش المدينة واستتب الأمر، بدأ الجنود يعودون إلى وحداتهم، ونتيجة قلة وسائط النقل كان الزحام شديدا، لفقدان الوقود، وفي غمرة ذلك الزحام سمع الجنود مكبرات الصوت تدعوهم إلى التوجه إلى فندق السلام، حيث سيوفر لهم المسؤولون السيارات اللازمة التي ستنقلهم إلى

معسكراتهم مجانا، فتوجهوا بالآلاف إلى فندق السلام، وفعلا كانت السيارت بانتظارهم، وتحركت بهم إلى هناك، تكررت العملية عدة أيام، وفي كل مرة كانت الحافلات تتلقف الآلاف من الجنود، لكن أحدا منهم لم يعد إلى داره، بعد عدة أشهر، كانت الأقلية الضئيلة التي أفلتت من معتقل الرضوانية تقول أن تلك الحافلات قد توجهت بهؤلاء الجنود إلى معتقل الرضوانية، وبعد أثني عشر عاما عثر على عظام بعض هؤلاء في المقابر الجماعية، وما زالت عظام البعض الآخر مخبّأة في مقابر جماعية لمـّا تكتشف بعد.

رثاؤك مر أليم أيتها المدينة، كم سيظل رثاؤك الأليم يحزن سيدك الباكي، الرب الذي دمر بيته يشارك مدينته البكاء والندب، ناحت المدينة وشاركت الرثاء سيدها الذي خربت بلاده.

الفتى الذي ترك نزيف ذكرياته يتدفق بغزارة، توقف فجأة عن السير، وأحس بالحاجة إلى أن يعود أدراجه، لم يعد بحاجة إلى مواصلة المسير، وجد أقدامه تتحرك بدون إيعاز منه، سار بخطى ثابتة، نحو زقاق آل سميسم، ولجه دون أن يلتفت، إلى الجدران والأبواب، انعطف معه، حتى وصل إلى نهايته، هناك استقبلته الفنادق ذوات الطوابق الأربعة والمحلات التجارية الكبيرة، قال في سره:

- هنا كان جبل شريشفان، قبل ان يقتلعه شفل البلدية، من هذا المكان قطف جدي عشبة الخلود، وأعطاها لواحد من أحفاده.

فجأة سمع في داخله سؤالا يلح:

- من قال ذلك؟؟!!! المجلسي في بحاره لم يتطرق إلى عشبة الخلود .

وجاءه الجواب من داخله أيضا :

- سيدوري تقول ذلك، أليست هي أوثق من المجلسي ما دام عصرها أقرب إلى عصر جدنا صاحب السفينة العملاقة؟؟؟

ألم تكن هي صاحبة الحانة التي أرشدت الحفيد إلى أور شنابي ملاح جدنا صاحب السفينة؟؟؟،

ثم.. ألم تكن شاهدة على الحفيد يوم أخذ الفأس بيده، بتوجيه من أور شنابي، وانحدر إلى الغابة، واقتطع مائة وعشرين مرديا، طول كل منها ستون ذراعا، وطلاها بالقار وغلف كعوبها بالمعدن، وجاء بها إلى أور شنابي؟؟؟

ثم... ألم تكن شاهدة على استجابة الحفيد لأور شنابي يوم قال له:

- "خذ مرديا وادفع به، وحذار أن تمس يدك مياه الموت.

أسرع وتناول مرديا ثانيا وثالثا ورابعا وخامسا..."

حتى استنفذ كل المرادي، ثم شمر عن يديه، ونزع ثيابه ونشر بيديه القلوع...

ثم ألم تكن صاحبة الحانة شاهدة على ما أكله الحفيد من خبز زوج صاحب السفينة، يوم أخذته سنة من النوم؟؟؟

ثم ألم تكن سيدوري شاهدة على ذلك الحفيد يوم غسل في الماء أوساخه حتى عاد أبيض كالثلج؟؟؟

ويوم لبس العمامة الجديدة والحلة النظيفة التي ستر بها عريه؟؟؟

ويوم كشف له جده صاحب السفينة عن سر العشبة التي تجدد الشباب.

ويوم هبط الحفيد إلى أعماق المياه لينتزع تلك العشبة ويجلبها إلى أوروك ويزرعها هناك كي يأكل منها الناس جميعا، ما دامت تجدد الشباب، وتطيل العمر.

ثم ألم تكن سيدوري شاهدة على الحفيد يوم أبصر بركة في الطريق إلى بلاده، فنزل فيها ليغتسل، فشمت حية عرف النبات، فاختطفته، وفي عودتها نزعت عنها جلدها؟؟؟

ثم ألم تكن سيدوري شاهدة على الحفيد يوم جلس يبكي حتى جرت دموعه على وجنتيه؟؟؟

توقف الفتى لحظة أمام واجهة أحد المحلات، وظل يتأمل نافورة كانت تبعث بمائها المتدفق إلى أعلى، لكن السؤال انبثق في داخله ثانية بصيغة ساخرة:

- هل قالت لك سيدوري ان العشبة نابتة في جبل شريشفان؟؟؟؟

تمّت



عبد الهادي أحمد الفرطوسي

■ من مواليد النجف عام 1946، أكمل الابتدائية والمتوسطة في مدينة النجف كما أكمل الاعدادية في الناصرية، وقد تخرج عام 1969 من جامعة البصرة كلية التربية الملغاة، وفي عام 2000 حصل على الماجستير في النقد الأدبي، وفي عام 2005 حصل على الدكتوراه في النقد الأدبي.

■ ناقد وروائي وشاعر صدرت له مجموعتان شعريتان: "بوصلات" و" إنجيل أمّ سعد"، وخمس روايات، من بينها رواية "الرجل الآتي" التي فازت بجائزة الشارقة عام 2000، والأرض الجوفاء، والزمن الحديدي، وضوع الكبريت، والكون السال1ب، كما صدر له أربعة كتب نقدية هي: "انشطار الرؤيا"، و"المبنى الحكائي في القصيدة الجاهلية" يتناول الشعر الجاهلي في ضوء المناهج السردية الحديثة، و"سيميائية النص السردي " يتضمن دراسات سيميائية لخمس أعمال قصصية عربية، و"قراءات في السرد والشعر"، وتأويل النص الروائي في ضوء علم اجتماع النص الأدبي وله ثلاثة كتب نقدية أخرى تحت الطبع.

■ أسهم في أغلب مهرجانات المربد والمهرجانات الشعرية الأخرى، والمؤتمرات العلمية، ونشر الكثير من نتاجه في المجلات الأدبية والعلمية المتخصصة، ومارس العمل الصحفي فترة من الزمن، وقد شغل منصب رئيس تحرير مجلة "بانقيا" وشغل موقع رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في النجف. خلال السنوات السبع الماضية.

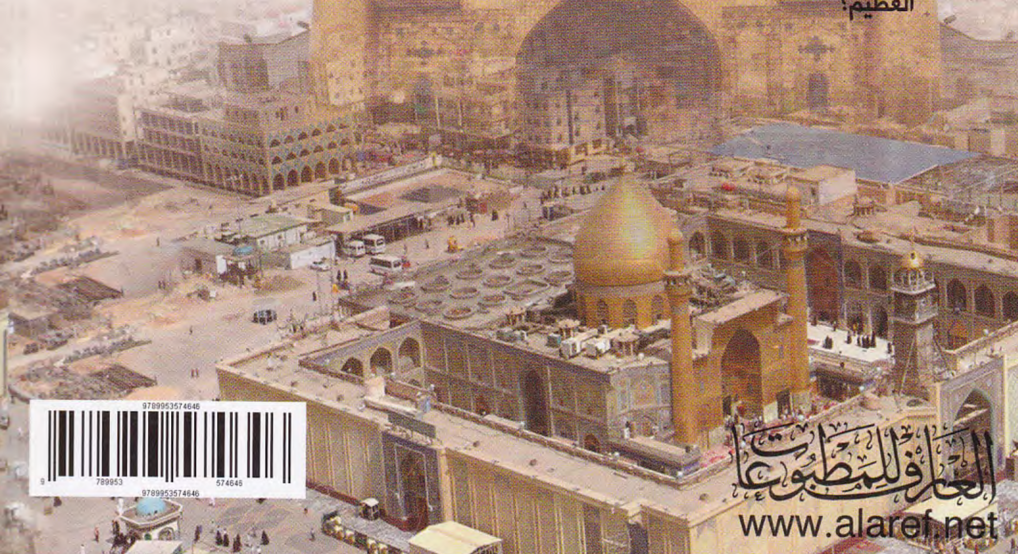
■ وهو الآن يرأس تحرير مجلة "رؤيا" كما فاز بعدة جوائز أدبية من بينها رواية الرجل الآتي التي فازت بجائزة الشارقة عام 2000 وكتاب تأويل النص الروائي الذي فاز بجائزة الإبداع عن وزارة الثقافة العراقية عام 2010.

كيف بنيت هذه المدينة؟ وكيف كانت خطة البلدية قبل أن يهبط إليها الشيخ أبو جعفر الطوسي؟ وما اسم المهندس الذي شيدها؟ وهل تأسست على وفق نظام سابق؟ كان مرسوما على الأقل في ذهن مؤسسها الأول؟

وحين شرع بكتابة الصفحات الأولى من كتابه أحس بأنه يبحث عن شيء مهم، وبعد تأمل قصير قفزت إلى ذهنه عبارات للكاتب البحريني نادر كاظم، إذ يقول: " فثمة جماعات لا تتمثّل وجودها التاريخي الخاص إلا من خلال سردها الخاص أو تحبيكها الخاص لتاريخها الثقافي، وهذا التحبيك هو – في المقابل – ما يدعم هويتها، وهو ما يكوّن "الهوية السردية" "... وإذاك أيضا أدرك أنه كان يسعى لأن يجمع عناصر هويته المتشظية ويوحدها ويمنحها الاتساق المطلوب...

قد تفرض رغبته الذاتية هوية معينة لكن الواقع يفرض جانبا آخر ربما لم يكن في حسابه، هكذا يسأل نفسه من أين يبدأ؟؟

أمن اللحظة التي حل فيها الشيخ أبو جعفر الطوسي على هذه القرية الرابضة على ضفاف الصحراء؟ أم يتوغل في العمق ليصل إلى الساعة التي استقبلت فيها جسد السميدع العظيم؟



9789953574646
9 789953 574646
9789953574646

العارف للمطبوعات
www.alaref.net